نجيب الكيلانى

عمر يظهر فى القدس

كتاب المختار



روايات إسلامية

١٦

عمر يظهر في القدس

نجيب الكيلاني

رقم الإيداع ٢٥١١ / ٢٠٠٨

مقدمة

كلمة قصيرة

أخي القارئ ...

أعرف أن هذه الرواية قد تثير عديدًا من التساؤلات الفنية والفكرية والعقائدية ، وذلك لطرافة فكرتها وخروجها على المألوف ، لكن الكابوس الذى جثم على روح الأمة ، وموجة الألم العارمة التي أرجفت تصوراتها وأحلامها ، والحيرة الضاربة التي استبدت بعقول بنيها ، قد فجرت ينابيع متباينة المذاق .. ومهدت الطريق أمام رؤى عديدة ، بعضها زائف مضطرب ، وبعضها أصيل . غني بالخصوبة والحياة والقوة ..

إن هناك قضايا فكرية وعاطفية ، وهناك علامات استفهام كثيرة تملأ الرءوس وتداهمنا في اليقظة والمنام ، ولابد للأقلام الحرة أن ترود التجارب العديدة ، والحياة تجارب ، لتعرض ما تشاء فى جدية وعمق ووضوح ..

ومع ذلك فإن للمضمون أكبر الأثر فى اختيار الشكل الفني ، بل إن المضمون قد يفرض شكلًا بذاته ... والسلام .

نجيب الكيلاني



الفصل ١

«قلت لك يا أمي ألف مرة ، ليس هناك ما يدعو إلى القلق ، الحقيقة أنني أشعر بحزن ثقيل ينوء به قلبي ، وبمرارة عارمة تتشبع بها روحي ، ويتملكني يأس معاند ، لا يفتأ يطالعني من وقت لآخر ، ومع كل هذا لا موجب للقلق يا أماه ، لقد أصبحت هذه الأمور كلها بمرور الوقت أمرًا طبيعيًا في حياتنا ، نحن جيل الضياع والأحزان يا أماه ، أيام الذل مزرعة خصبة للآلام والأحزان ، وسنوات الهوان الطويلة لم تتفجر عن فجر يبدد الظلام والوجوم ، وتمادى العدو فى طغيانه وعبثه وغروره ، دون أن نستطيع الثأر منه ، يشعرني بعجز قاتل ، ويعصف بالأحلام الخضراء .. هذه أعراض لابد منها ، ولو لم نكن استباحتنا على هذه الصورة ، لكنّا بالموتى أشبه .. نحن أحياء نرى .. ونستوعب الأحداث ، ونتفعل بها ، وينغصنا الألم فنأرق ونتعذب ونشرد ونحلم كل يوم .. نحن بشر يا أماه . الذين لا ينفعلون بهذه الأحداث هم الشذوذ نفسه .. وهؤلاء هم الذين يجب أن تقلقي عليهم .. تقولين إن اليأس كفر ، ورحمة الله وسعت كل شيء .. إن كلماتك صواب .. لكن هناك نوع من اليأس قد فرض علينا فرضًا ، لا حيلة لنا فى رده أبدًا ، إنه قدر ، وهو في نفس الوقت عقاب .. نحن الذين جدلنا نسيج الهزيمة بعبثنا ولهونا

واستهتارنا .. وقد وقع العقاب ، أيمكن أن تكون المأساة مطهرًا نغتسل فيه من الخطايا والعهر القديم ؟ أمي .. لا تبتئسي ، فإن الأحزان القديمة الطويلة سوف يتداعى بناؤها العتيق ، ويخرج من قلب الغبار والدخان والركام عملاق يحمل بين كفيه فجر الخلاص .....» .

وسكتُ ..

كانت أمي تنظر إليّ بوجهها الشاحب الحزين ، والدموع تترقرق في عينيها ، ولعلها كانت تظن أني قد أصبت بنوع خبيث من الجنون ، وأغرب أنواع الجنون ينبع من هذيان نسميه حكمة ومنطقًا قويًا ، وتفسيرًا جذابًا للأحداث الجسام التي يرتج لها كياننا .. ولم تزد أمي على أن نصحتني بأن أقلل من السهر ، وأبتعد بعض الوقت عن إطالة النظر في الكتب ، وأن أبحث لي عن عمل أدفن فيه مرارتي وأحزاني .. وقبل أن أنصرف عنها قالت : «لست أدري إلى متى تظل بلا زواج ؟!» وربما كانت تعتقد أن ارتباطي بزوجة ، وإنجابي لعدد من الأطفال قد يقدم بديلًا جديدًا لاهتماماتي الروحية والفكرية ، أو ربما كانت قلقة من أجل مستقبل ابنة أختها التي كان هناك شبه اتفاق غير مكتوب على أنني لها وهي لي ، أو لعلها كانت تريد بديلًا لأختي وأبي أولئك الذين استشهدوا في معركة القدس في يوم من أيام حزيران السوداء .. وقلت لها في توتر : «أمي لا طعم للأعراس ، وأعلام العدو تخفق في سماء المدينة المقدسة ...» .

ووليت هاربًا قاصدًا خارج المدينة ، لم أكن أحمل حقيبة ، أو أضع على عيني منظارًا أسود ، أو أتلفت يمنة ويسرة ، كنت أمضي دون اكتراث ، نظراتي الشاردة مصوبة إلى الأمام إلى بعيد .. متخذًا من جانب الطريق الأيمن مسارًا لي ، والمدينة تعج بأصوات السيارات والطائرات ونداءات الباعة ، وفي مكاني المعهود ، حيث الهدوء والعزلة والصمت والآفاق الرحبة ، جلست فى ظل شجرة عتيقة ، كانت تشدني إلى هذه الشجرة ألفة وحنين من نوع غريب ، وجلست مسندًا ظهري ورأسي على جذعها الضخم الراسخ ، وعشرات الأفكار تصطرع في رأسي المتعب .. ملامح الأرض لم تتغير ، السماء كالعهد بها ، والطيور تمرق فى الأفق الكبير ، والشمس تصب دفئها وأشعتها ، لا تكترث لما جرى ويجري ... والعالم موقفه يدعو إلى الحيرة ، يصفق للمعتدين ، وينحي باللائمة على المغلوبين المظلومين ، ويتغنى بالحق والعدل والسلام .. أكاد أختنق ، وأجفاني تثقل وتثقل ، والإرهاق يجعلني عاجزًا عن الحركة .. كل شيء يضطرب فى ذهني ، لكأني مقيد ، ومعلق بين السماء والأرض ، لا أستطيع الهبوط أو الصعود ، هل توقفت قوانين الطبيعة ، أم أني أضرب فى عالم آخر غامض غاية الغموض» .

وسمعت صوتًا ينادي : «أيها المعلق بين الوجود والعدم ... تعال إلي ...» .

ولفحت وجهي المحتقن الملتهب أنفاس عطرة ندية ، أحسست أن يدًا سحرية تصب في قلبي وعقلي قطرات من الراحة والسكينة والرضا .. حاولت أن أفتح عيني فتدفق النور .. يا إلهي ماذا جرى ؟! أخذت أتحسس جسدي ، وأفتح عيني ثم أغلقهما .. وأقبض يدي ثم أبسطها .. وأتنفس بقوة ... وشعرت بيد حانية تربت على كتفي في حنان ورفق .. انتفضت .. أسرعت بالوقوف وقد داهمني ذعر شديد ، ونظرت خلفي فإذا برجل مديد القامة ، مشرق الوجه مشرب بالحمرة ، تضفي عليه لحيته البيضاء وقارًا زائدًا ، وكان أروع ما فيه عينيه الصافيتين الواسعتين اللتين تفيضان صفاءً ويقينًا وأمنًا : «سلام الله عليك ..» .

صحت في ارتباك : «من أنت ؟!» .

قال والابتسامة تعانق كلماته : «فرضٌ عليك أن ترد السلام على من يقرؤك السلام» .

قلت وأنا ألهث : «وعليك السلام ، فمن أنت ؟!» .

– «عبد من عبيد الله» .

– «لم تجب ...» ..

– «الحقيقة الأولى هي أننا جميعًا عبيد الله»

– «ولكن لكل عبد اسم ورسم ..»

قال وقد أحنى رأسه حياءً وتواضعًا : «اسمي عمر بن الخطاب ..)

صرخت في دهشة : «من ؟»

– «ما الذي يزعجك يا ولدي ؟»

– «حسبتك خليفة رسول الله ..»

– «إنه لكذلك ..»

تصدر الكلمات من بين شفتيه قوية رصينة ، تفوح منها رائحة الصدق والجلال ، بريئة من الشك والريبة ، خالصة من كل بهتان ، لكن كيف أصدق ! .

– «الموت سجن رهيب ، لم نسمع أن أحدًا اخترق أسواره السميكة ، أو تسلق هاماتها الشاهقة ..»

ابتسم في هدوء وقال :

– «الموت جسر إلى الخلود ، أتعرف شيئًا عن الله .. والبعث وقدرة الخالق .. وعالم الغيب والشهادة»

– «أعرف الكثير ..»

قال : «تعرف ولا تؤمن ، المعرفة شيء والإيمان شيء آخر .. ولا قيمة لمعرفة بدون إيمان ، ما دمت قد عرفت فيجب أن تؤمن بالمعرفة اليقينية ... وقدرة الله ليس لها حدود ..» .

طأطأت رأسي في حياء ، وقلبي يفيض بالحيرة ، وفكري نهب للشكوك المتضاربة ، أعرف أن الله قادر على كل شيء ، وأن في العالم أسرارًا لم ترفع عن وجهها الحجب حتى عصرنا هذا ، وأن عالم الغيب غاصٌ بالأعاجيب والألغاز والأحاجي المشكلة أنني لم أرَ في حياتي ميتًا ينفض عن هيكله وكفنه غبار

السنين ، ثم ينهض ، وشدني من حيرته حينما تساءل قائلًا : «ما هذه المدينة ؟»

– «بيت المقدس يا أمير المؤمنين»

– «أرضنا الموعودة .. جئت من وراء السنين لأرى وأقول .. ليس لي رصيد سوى الكلمة .. يا لجمالها!! لقد زرتها في حياتي ، ووضعت جبهتي على ترابها وأنا أسجد لله .. لترابها عبير لم يزل عالقًا بأنفي .. ولها ذكريات .. وحاولت زيارتها مرة أخرى لكني لم أستطع .. كان الوباء متفشيًا فيها .. وقررت يومها الرجوع .. وقال قائدنا الهمام ابو عبيدة بن الجراح محتجًا : أتفر من قدر الله يا عمر ؟! وقلت له : نفر من قدر الله إلى قدر الله .. وكان نبينا صلى الله عليه وسلم قد أوصانا بألا ندخل أرضًا بها وباء ، أو نخرج من أرض أصابها الوباء «وهكذا رجعت ..»

وانهمرت دموعي وأنا أقول : «يا أمير المؤمنين .. إن بالقدس اليوم وباءً خطيرًا .. هتف في إشفاق : «الطاعون ؟»

– «الطاعون يقضي على عدد من الناس .. لكن الوباء الآن قضى على شعب .. وتاريخ .. وقيم كبرى .. في القدس اليوم الإسرائيليون آفة العصر ، وحاملو ألوية القدر والحقد والدمار ..»

هز الخليفة رأسه ، ويبدو أنه أدرك أنني لا أقصد مرضًا من الأمراض المعروفة بشدة عدواها وخطرها ، وقال : «أريد أن أزورها»

– «مستحيل ؟»

– «كيف ؟ هل أبوابها مغلقة ، أم أن هناك حربًا وحصارًا ؟»

نظرت إليه طويلًا ثم قلت : «هل معك هوية ؟»

– «هوية ؟ ماذا تقصد ؟»

– «هوية ، بطاقة شخصية .. جواز مرور .. أي شيء يثبت شخصيتك ..»

– «إنني لا أكاد أفهمك يا ولدي ؟»

– «الإسرائيليون يا أمير المؤمنين لنْ يَدَعُوكَ تمرّ!!»

– «أهم قطاع طريق أم جيش مهاجم ؟»

ارتميت لدى قدميه أسكب الدموع ، كنت أهذي وأقول : «القدس تحت نير الاحتلال .. أخذوا القدس القديمة هي الأخرى ، القدس العربية في نكبة «حزيران» .. دورياتهم تجوب الشوارع ، وتقف على نواصي الحارات ، وتراقب المارة ، وتفتش السيارات ، لا يفلت منهم أحد ، حتى النسوة والأطفال والعجائز ، تغيرت الدنيا ، وظاهرتهم أمريكا .. العار يفرخ في أرضنا التعسة منذ سنين ..»

قرأت الحيرة في عينيه ، وعلى وجهه المشرق ، وشرح لي أنه يقف الآن وبيني وبينه أربعة عشر قرنًا من الزمان ، واعترف في

تواضع أن كثيرًا من الكلمات التي قلتها لم يستطع أن يفهم معناها تمامًا مثلما حدث في القديم عندما دخلوا بلاد فارس والرومان، ووجدوا كثيرًا من التقاليد واللغات والأسماء والمصطلحات التي تختلف اختلافا كبيرًا عن مثيلاتها في بلاد العرب، وطلب مني أن أشرح له معنى الاحتلال وحزيران وأمريكا والسيارات، وهممت بالحديث، لكن هديرًا صخابيًا سد أسماعنا، وبدد السكون، ورأيت الخليفة يرفع عينيه إلى السماء مستغربًا، وتمتم: «السماء تقذف بالشهب والحمم ..»

همست في حزن دون أن يبدو عليّ أية بادرة من بوادر الخوف: «إنها الميراج»

– «ماذا تعني ؟»

– «طائرة ..»

– «إنها تنطلق بسرعة مذهلة، وتسير كأنما يوجهها أحد .. إنها لا تمضي ذاتيا .. أم تراها مخلوق غريب ظهر في عصركم ؟ ثم ماذا تعني بكلمة طائرة ؟

قلت خافض الرأس حزينًا: «آلة صنعها الإنسان من حديد ومعادن شتى، تسير بوقود من البترول، تنطلق في الجو عاصفة .. تقذف بالنار والموت والرعب .. لا قلب لها .. تسرق النصر، تنفث الذل أو الفناء في صفوف الأعداء. وتمنح المجد والسيطرة لأصحابها .. هي الوفاء الأعمى .. تهد الجبال، وتدمر المنازل، وتشعل الحرائق .. صنعها الإنسان ..»

هز رأسه دهشًا: «لله في خلقه شئون»

– «ليست من مخلوقات الله يا أمير المؤمنين ..»

ابتسم عمر في يقين وقال: «الإنسان يشكل الحديد ولا يخلقه، وفرق شاسع بين من يخلق المادة من العدم، ومن يتحايل بأنامله وتفكيره ويعطي المادة شكلًا أي شكل»

نظرت إليه في إكبار وقد شدتني كلماته البسيطة الصادقة وقلت: «هذا حق»

ثم شرحت له ما أقصده بكلمة حزيران والنكبة والسيارة فرد في يقظة: «وأمريكا ؟»

– «أقوى وأغنى دولة في عالم اليوم يا أمير المؤمنين»

– «لكني كنت في الزمن القديم أعرف شتى أنحاء المعمورة ولم أسمع بهذا الإسم قط ..»

– «يا خليفة رسول الله، لقد كانت مجهولة في عصركم، كانت تختبىء خلف المحيطات الشاسعة وبحار الظلمات، معزولة متخلفة، بهنودها الحمر، ثم اكتشفت منذ قرون قليلة، فهاجر إليها كثير من البشر وسكنوها وعمروها .. واليوم أمريكا سيدة العالم ..»

قال: «أهي من أمة الإسلام ؟»

– «بل عدوه الأول يا أمير المؤمنين»

تقطب جبين عمر، وطافت مسحة حزن على جبينه المشع، وقال: «وكيف تهابون دولة مهما كان شأنها ؟! لقد تركناكم

وألوية الحق تخفق فوق العالم المعمور، وكان إيمانكم أقوى من الدنيا، وسيوفكم لا يقهرها باطل .. «كنتم خير أمة أخرجت للناس» ألا تقرءون القرآن ؟»

قلت في أسى عميق : «كل شيء تغير، أصبح الرجال غير الرجال .. والمبادىء غير المبادىء، ومال ميزان القوة، وأصبح المسلمون مستعبدين .. وفقد كل شيء إلا الأمل ..»

ضرب كفًا بكف، واكفهر وجهه هذه المرة، وقال : «أنتم لا تعرفون الله .. إن تنصروا الله ينصركم قول لا يتبدل .. لأنها كلمات الحق الأعلى .. لم أكن أتصور ما حدث .. أيهزمكم اليهود ؟ لو قال قائل في زماننا أن اليهود فتحوا مدينة من مدن الإسلام في أيامي لاستلقى الناس على أقفيتهم من الضحك .. إن في الأمر سرًا لا يبدو للعيان .. عسير علي أن أهضم هذه الأمور، لكنكم صانعو المأساة .. ولا شيء غير ذلك ..»

ثم التفت إليّ والعرق الغزير يتقاطر على جبهته ولحيته :

«هيا إلى بيت المقدس»

– «والهوية ؟»

– «لا شأن لك بذلك»

– «إني أخاف عليك»

– «وأنا لا أخاف إلا الله ..»

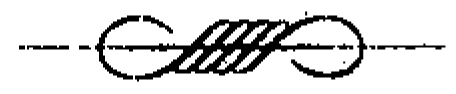
ونظر إلى بعيد، حيث تقبع المدينة الخالدة بمبانيها ومآذنها وقبابها، وأعمدة من الدخان الأسود والأبيض تهرع إلى الأفق،

وانحدر مرفوع الرأس صوب الطريق العام وأنا إلى جواره، وأخذ يغذ السير دون أن يبدو عليه إجهاد أو تردد، وعديد من الطائرات يشق الأفق، وعشرات السيارات الصغيرة والكبيرة تمرق مسرعة، وهو يتابع تلك الحركة وضجيجها بنظراته المستغربة، وتمتم : «يبدو أنه ليس وراء عالمكم سوى صناعة الحديد»

– «أصبح الحديد هو الوسيلة لكل شيء»

– «لا بأس كان السيف من الحديد ..»

ثم استطرد بعد برهة : «لكن المسلم كان أقوى من الحديد بإيمانه»



الفصل ٢

امتد بنا الطريق، وأنا أشعر بسعادة غريبة، ألست الرجل الموعود الذي كان له شرف الصحبة مع رجل ذكره يتردد على حقب التاريخ كأعظم ما يكون الرجال، وأنا أسير إلى جواره لا أكاد أصدق، سألني صديق ذات يوم عن العصر الذي أتمنى أن أعيش فيه، وكنت أقول له دائمًا أنني أعشق عصر النبوة وما فيه من رجال وصراع، وهذا عبق من عطر النبوة، إنني مشفق من المستقبل، لكني سعيد برغم الهواجس التي تلعب برأسي.

وعلى يسار الطريق قامت شجرة فارهة تتدفق حيوية، وتتدلى أغصانها الخضراء حتى تكاد تلامس الأرض، وإلى جوارها خيمة صغيرة مزركشة تتراقص فيها الألوان المختلفة والستائر الفضية، وتحت الشجرة جلس فتى وفتاة، وكانت يد الفتى تطوق عنق جارته الفاتنة ذات الشعر الذهبى، ورأسهما متلاصقان، ويدها في يده الأخرى، وكانت نظراتهما تقطر رقة ونشوة، لا يكادان يشعران بما حولهما، يهيمان في دنيا حلم رقراق جميل، وأمامهما زجاجة بها سائل قاتم اللون وكأسان، اتسعت عينا عمر دهشة، وهتف: «ما هذا الذي يحدث على قارعة الطريق»

– «طقوس الحب يا أمير المؤمنين ...»

زمجر مهتاجًا: «لا يصح أن يجلس زوج وزوجة هكذا أمام الناس»

تحيرت، ولم أستطع في البداية أن أعلق، لكني قلت: «إنهما صديقان .. هذا إيلي وصديقته .. إنني أعرفهما ..»

هدر: «ماذا تعني؟ بأي حق ترتكب هذه الدعارة»

– «لا شأن لنا بهما يا أمير المؤمنين»

– «اصمت يا رجل .. الساكت عن الحق شيطان أخرس، هذا انحطاط لا مثيل له، يجب أن يساقا إلى حيث ينالان الجزاء العادل ..»

واندفع عمر نحوهما في ثورة، ثم وجد غصن شجرة جافًا ملقى في الطريق، فالتقطه وأمسك به في تحدٍ، وما إن بلغ مجلسهما حتى صاح: «إنكما تمعنان في السفه والقحة»

فرطن الفتى بكلمات لم يفهم عمر معناها، ثم مال إلى فتاته يقبلها عابثًا ساخرًا، وأمسكتُ بذراع الخليفة، وأخذته إلى الوراء خطوات وقلت: «أيها الخليفة .. لا شأن لك بهما، وليس من اللائق أن تفسد عليهما متعتهما، إن لهما الحرية كل الحرية فيما يفعلان، هذا حقهما، وإن لم تنصرف فلسوف يبلغان عنك الشرطة ..»

ضرب عمر كفًا بكف وقال: «في أي مكان نحن؟ أنا لا أكاد أصدق ما يجري، من أحق بالعقاب والمحاكمة، أنا أم هما؟!

لا شك أنهما أصيبا بلوثة من الجنون .. إنهما ينشران السوء والفاحشة ..»

عدت إلى الإمساك بيده المرتجفة وقلت ضارعًا : «هما يهوديان ، ومن أصحاب الأمر والنهي ، وما علينا إلا أن ننصرف وإلا ..»

نزع يده في عنف وقال : «يهوديان ؟ لم تتغير طبائعهم منذ قديم الزمان ، كانوا بالأمس يستترون في بيوت الدعارة والمجون ، واليوم ينشرون فسقهم علانية ، إذا لم تتركني فسأضربك أنت الآخر ..»

حاولت أن أشرح الأمر من جديد ، فاليهود يحكمون المدينة ، ومعظم النساء في عصرنا سافرات ، وفتيات الجيل وفتيانه لهم حق التصرف بحرية إلى مدى بعيد ، أصبح ذلك أمرًا يكفله القانون ، والتصدي لهذا «الحق» يجر إلى عديد من المتاعب ، لكن عمر كان يغلي من الغضب ، وصاح صيحة زلزلت الفتى والفتاة ، فساد وجههما الشحوب والخوف ، وانقض عمر عليهما ضربًا بالعصى ، مما جعلهما يفران مذعورين ويلجئان إلى «بيارة» قريبة ، بعد أن تحطمت الزجاجة والكأسان بينما وقف عمر يلهث غاضبًا ، ويهز العصا في يده ، وتمتم : «أرى الفساد قد استشرى بصورة مزعجة .»

قلت : «طريق العودة إلى الله تسده صخور هائلة من الفساد» ..

– «المؤمن الحق لا يعرف المستحيل ، تخر الجبال لتقواه صاغرة ..»

ثم التفت إلى الزجاج المحطم والسائل المراق وقال : «ما هذا ؟»

– «خمر ..»

عض على شفته في ذهول : «دعارة .. وخمر .. في ضوء النهار ، ولا يخافان إقامة الحد عليهما ؟!»

قلت : «لك الله يا عمر!! لقد أُبطلت الحدود ، والخمر تباع في كل مكان ، الحكام يشربونها في الحفلات العامة ، وفي بيوتهم ، يتساقونها علانية ، وكأنهم يتساقون أقداحًا من القهوة .. وبيوت الدعارة تأخذ تراخيص من الحكومة ، ويحميها القانون . لقد أصبح للفساد قوانين تنظمه وترعاه ..»

وابتلعت ريقي ثم استطردت : «ليس هنا فحسب ، بل في أغلب أنحاء الدنيا ..»

التفت إلي قائلًا : «هل أنتم مسلمون حقًّا ؟!»

– «أجل ..»

– «وما دليلك ؟»

– «ما زلت أقول الشهادتين .. لكن ..»

– «لكن ماذا ؟»

– «اليهود يحكمون .. ورئيسة وزرائهم امرأة يقال لها جولدامائير ..»

قال عمر وهو يلوح بيده : «وأين خليفة المسلمين في المدينة ؟! وأين ولاتنا في الجزيرة العربية والعراق وفارس ومصر ؟! أين ألوف الألوف من حملة الرايات والمصاحف يا جيل الهوان والسخريات والعبث ؟! »

حاولت تهدئة خاطره ، كنت أرى أن يعتصم بالهدوء في مواجهة واقع أليم يفيض بالتحديات والانحرافات ، ولم يكن هناك من وسيلة سوى أن أوضح له الحقائق في كلمات سريعة .. حاولت إعطاءه صورة لما حدث في عصرنا للمسلمين ، كيف ضعفوا واستخذوا ، وكيف داهمتهم أوربا بعلمها وخبثها وأحدث آلات الدمار التي استحدثتها ، فاحتلت بلادهم سنين طويلة ، وكيف نفثت سمومها في فكرهم ودينهم وتراثهم ، فأثارت في صفوفهم البلبلة والاضطراب ، وملأت حياتهم بالشكوك والأكاذيب ، ثم كيف تيقظ المسلمون ، وحاولوا استرداد حرياتهم وبلادهم ، وشرحت له ما جرى للخلافة من وهن ذاتي ، وكيف تآزرت قوى الشياطين للقضاء عليها ، ثم القيم الجديدة التي تحكم عصرنا ، وكيف تحول المسلمون إلى مجرد مدافعين عما تبقى لهم من شيء قليل ، وكيف انقسم الحشد الواحد إلى قوقعات صغيرة معزولة ، تجتر كل واحدة أساها ، وتنعي حظها ، ولم يزد عمر على أن قال والدموع في عينيه : « عادت الجاهلية كأعنف وأخبث ما يمكن ..»

أخذت أهز رأسي وأقول : «نحن في حاجة إلى نبي جديد »

صاح محتدًا : « اصمت وإلا قطعت لسانك .. كلماتك تنضح بالكفر والغباء .. ألا تعلم أن رسول الله خاتم النبيين ، وأنه لا شيء غير القرآن .. تلك دعارة فكر لا تقل غرابة عما رأيته اليوم بين الفتى والفتاة ! تبذلون الكلمات بسخاء أبله .. نبي جديد ... يا للمهزلة لما تقول !! الكلمة الأخيرة كانت وستظل تتردد في أرجاء الدنيا ، برغم ما تعانون من خيبة وفشل . لست أول جيل يجيء ، ولا آخر جيل .. الآن عرفت سبب انتصار اليهود عليكم ، ونشرهم الفجور بين ظهرانيكم . الخوف يلد الرذيلة .. والهزيمة تمسخ ضعفاء الإيمان .. أنتم جياع برغم رصيدكم الضخم من الزاد .. تدقون الأبواب الصلدة في بله ، ولو بحثتم عن المفاتيح لتفتح أمامكم باب النعيم الأبدي ...»

«كالعيس في البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول »

اسمع يا فتى .. إن من يتعود التقاط الفتات من موائد الأغنياء ، تسحره كلماتهم وفكرهم وسلوكهم ، ويحاول أن يقلدهم « وفي التقليد الأعمى فناء العقل والروح .. هكذا يتحول السادة إلى عبيد .. وإذا أردت أن تعرف كيف يصبح العبيد سادة فتذكر قصة أخي بلال بن رباح .. لقد سخر من نتن الفكر لدى أساطين الكفر في مكة .. ضربوه .. عذبوه .. لكنه لم ينحن ليلتقط الفتات .. أتفهمني ؟ »

قلت مطأطىء الرأس : « أجل ..»

فقال : « فلنمض في طريقنا ..»

وأمسك بيدي ، وسرنا صوب المدينة ، كان يرتجف غضبًا ودهشة ، ويحث الخطى مسرعًا ، وسيما الحنق والتوتر تصبغ حركاته ، وترتسم على ملامح وجهه ، وعند مدخل المدينة كانت توجد نقطة حراسة اسرائيلية ، وقدم نحونا جندي يحمل مدفعًا رشاشًا وقال بلكنة عربية عرجاء : « الهوية »

أبرزت هويتي فتصفحها بدقة ، ثم ركز نظراته على وجهي بعض الوقت ، وهز رأسه ، ثم قذف بها إليّ في استهتار وتحد ، وبعد ذلك اتجه صوب أمير المؤمنين ، وأنا أرتجف من الخوف ماذا سيفعل ؟ وكيف سيواجه عمر هذا الموقف الشائك ؟ وتصورت القصة التي تحدث دائمًا ، لسوف يسوقونه إلى مقر رجال الأمن ، لعمل التحريات اللازمة ، وربما يلقون به في معتقل من المعتقلات الكثيرة ، أو يحكمو عليه بالسجن لبضعة شهور ، لماذا لم أتدبر الأمر كما يجب ؟ ألم يكن باستطاعتي أن أزيف له هوية ؟ وكيف أقف مكتوف الأيدي أمام هذا المشهد : جندي أرعن يتعرض لخليفة رسول الله ﷺ أعدل من حكم الأمة ، وأقوى من ساس الأمر بعد الرسول ، وقاهر الفرس والروم ، وباعث نور الرسالة الإلهية في المشرق والمغرب أية مهزلة توشك أن تحدث ؟

- « وأنت .. أين هويتك ؟ »

- « بلا هوية .. أنا معروف .. لابد أن أمر ..»

قالها عمر ، وهو يرصد الجندي بنظرات قاهرة لا تقاوم .. تراجع الجندي بضع خطوات للوراء ، ودارت بي الأرض ، لسوف ينطلق المدفع الرشاش ، ويحيل الخليفة إلى أشلاء ودماء في لحظات ، وآلات العصر الجهنمية يا أمير المؤمنين لا تفرق بين الأطهار والأشرار ، ولا تميز المؤمنين من الكافرين .. إنه عصر الملحدين والرافضين .. فلأنقض على الجندي كي أمنعه من ارتكاب الإثم الأكبر .. وفتحت عيني لأرى عمر يمضي في طريقه مرفوع الرأس ، والجندي يعود إلى خيمته دون اعتراض . لماذا مضت الأمور على هذا النسق الغريب ؟! لا أدري ..

ولم نكد نبتعد بضع خطوات ، حتى سمعت نداءً وصياحًا خلفنا ، فالتفت فإذا بسيارة ، وبها عدد قليل من رجال الشرطة وبها « إيلي » وفتاته ، العاشقان اللذان كانا يتساقيان كئوس الهوى تحت الشجرة .

وقالت الفتاة وهي تشير بسبابتها المخضوبة صوب عمر : « إنه هو .. هذا الشيخ الرجعي وأمثاله لا يعرفون أصول اللياقة والأدب ..»

اندفع عمر نحوها بعصاه وهو يزمجر : « أيتها الملعونة .. أتجرئين على الظهور أمامي مرة ثانية ؟! لو أن بالمدينة رجالًا حقيقيين لجلدوك أنت وذلك العربيد لتكوني عبرة لغيرك ..»

انحنى الشرطي أمام عمر في ابتسامة ماكرة وقال : « معذرة أيها الشيخ الجليل .. يجب أن تصحبنا إلى مركز الشرطة »

أشار عمر بإبهامه على صدره قائلاً : « أنا ؟! »

– « أجل ..»

هز عمر رأسه قائلاً : « فهمت .. تطلبونني للشهادة .. يبدو أن بكم بقية من نخوة ..»

ضحك الشرطي حتى كاد يستلقي على ظهره ، ثم اتخذ سمت الجلد والتحدي وقال : « نحن أساتذة العالم .. ولم نعد بحاجة إلى عربي يعلمنا السلوك والآداب .. أنت متهم بالتدخل في شئون الآخرين ، ومتهم بالاعتداء بالضرب على فتى وفتاة بريئين ..»

قال عمر في دهشة : « بريئين ؟! أأنا متهم ؟! أنت تخلط »

ووضعت الفتاة ذراعيها حول عنق فتاها وقالت وهي مستغرقة في الضحك : « إيلي يا حبيبي .. إن هذا الرجل ظريف للغاية .. لكأنه من أهل الكهف .. إنه تحفة نادرة ..»

امتدت يد عمر إلى عنقها ، وجذبها في عنف وهو يقول : « لا يمكن أن أرضى بهذا التحدي للآداب والشرائع . الصمت في مثل هذا الموقف جريمة ، ولو كان حولك ألف ألف شرطي ..»

وحاول ثلاثة من رجال الشرطة تخليص الفتاة منه دون جدوى ، فأخرج إيلي مسدسه نحو عمر قائلاً : « إذا لم تتركها فسوف أفرغ الرصاصات في رأسك »

واندفعت إلى عمر كالمجنون وقلت ضارعًا : « اتركها بالله وإلا حدثت كارثة ..»

وفي لمح البصر ضرب عمر المسدس من يد **إيلي فانقذف إلى** بعيد ، وهربت الفتاة إلى إيلي المرتبك الحانق **وأخذت تقول** : « لقد كاد يقتلني يا إيلي . إن في يده قوة مهولة ..»

ثم أخذت تضحك وتنقل نظراتها بين وجه إيلي الحانق ومسدسه الملقى بعيدًا ، وقالت : « يستطيع هذا الرجل أن يسحق ثلاثة مثلك في لحظات ..»

ثم عادت إلى عمر تتحسس ذراعيه ويديه وتقول : « أنت كهل مثير للغاية .. إنني أدعوك للعشاء معي ..»

ركلها عمر في عنف وقال : « خذوا هذه الكلبة عني ..»

وعلى الرغم من أنها ارتمت على الأرض ، إلا أنها كانت تبتسم في دهشة غريبة ، وتمتم إيلي في غيظ ، وقد رأى ثيابها منحسرة ، ونظراتها الولهى مركزة على الشيخ : « ما هذا الذي تفعلين يا راشيل ؟! »

قالت وهي تهم بالنهوض ، ثم تنفض التراب عن ثيابها : « لكني أحببته يا إيلي .. أعني أنني معجبة به .. أو ليس لي الحرية في أن أعبر عن حقيقة شعوري ؟

– « لا مجال للهذر والعبث في هذا المجال ..»

لم تعره التفاتًا ، وواجهت ضابط الشرطة قائلة : « لقد تنازلت عن حقي ، وسحبت الشكوى .»

ثم توجهت إلى « إيلي » بنظراتها قائلة : « وإيلي هو الآخر معي في ذلك ..»

فأخرج الضابط ورقة من جيبه، وطلب منهما التوقيع .. وقلت لعمر وأنا في قمة السعادة: «نستطيع الآن أن ننصرف بحمد الله ..».

كان عمر لا يستطيع فهم اللغة التي يتحدثون بها، وتمتم: «ماذا جرى ؟!»

– «لقد نجانا الله ..»

– «وهذان ؟! ألا ينالان جزاءهما ؟!»

– «يا أمير المؤمنين ..»

– «لن أغادر هذا المكان قبل أن ..»

لكنه توقف عن الكلام حينما راى سيارة الشرطة تنطلق مسرعة، ومن خلفها الدراجة البخارية التي يركبها «إيلي» و«راشيل» ومن خلفها زوبعة من الغبار الخفيف.

وتمتم عمر: – «لقد هربا ..»

وقلت: – «لقد نجونا ..»

لكزني عمر في ضيق قائلًا: تصرفاتك لا تليق بمسلم .. أنت شديدالخوف، ثم تنهد ونظر إلى السماء، كانت الشمس تتوسطها، والجو شديد الحرارة، وقال عمر في عجلة: «لقد حان وقت الصلاة .. اليوم يوم الجمعة .. هيا إلى أقرب مسجد لنؤدي الفريضة .. أم أنكم ممنوعون من تأدية شعائر الله في المساجد ؟!»

الفصل ٣

وقصدنا الميضأة، وعمر يتمتم بالدعوات والآيات .. ووقف خلف أحد المتوضئين حتى جاء دوره، وأبدى إعجابه بالنظافة والماء الوفير، وشرب جرعات منه، ولم يخف رضاه عن مذاقه المستساغ، لكنه انتقد بشدة ذلك التبذير الواضح في استعمال الماء، وفرح أيما فرح بتقاطر المصلين أفواجًا لتأدية الفريضة، وهمس: صدق رسول الله: «الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة»، ولاحظ عمر أن الوجوه يكسوها العبوس والصمت، ويوشحها الذهول والقلق، وعندما جلس في ركن من أركان المسجد الواسع، وتحسس السجاد الفاخر، ونظر إلى الثريات الكبيرة، واللمبات الكهربائية الضخمة، بدا له أن ذلك نوع من البذخ لا مبرر له، وخاصة في وقت حرب كهذا الوقت، وتعجب للمنبر العالي المنمق الذي يعبر عن فن دقيق جميل، وظهر الضيق على وجهه حينما رأى الكثيرين من المصلين يتخطون الصفوف كي يجلسوا في المقدمة، فلم يتوان عن الوقوف، وأخذ يعلمهم أن تخطي الرقاب في المساجد أمر غير مستساغ ومنهي عنه، وأوصى كل مصلٍ بأن يجلس حيث انتهى به مكانه من الصف الأخير، ودهش إذ رأى البعض لا يكترث لكلماته، ويصر على تخطي الرقاب، وتمتم «ألست على حق ؟!

فلماذا لا ينصاعون لكلماتي ؟! وسمع عمر صوتًا قويًا نديًا رقراقًا يردد سورة الكهف ، وأخذ يتطلع هنا وهناك باحثًا عن صاحب الصوت وهو يقول : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ...» وأشرت أنا إلى منصة صغيرة قرب المنبر ، ثم أشرت إلى مكبرات الصوت التي تزيد القراءة رنينًا وقوة ووضوحًا ..

وبكى عمر تأثرًا بما سمع من الآيات ، وكان تأثره ممزوجًا بسعادة كبرى ، فهو يسمع القرآن دون تحريف أو تبديل ، كما نزل على سيد الأنام محمد بن عبد الله ، وقال لي فيما بعد : خفت أن يمتد شططكم وغروركم إلى كلمات الله فتعبثون بها ، وتغيرون وتبدلون كما فعل بنو إسرائيل بالتوراة ، وكما فعل النصارى في الإنجيل ..

كان عمر منتشيًا بما يسمع من آيات ، لكنه سمع ضجة تنبعث من الخلف ، ووجد رجلًا ضخم الجثة ، لاهث الأنفاس يهرول ويقول : « افسحوا الطريق للإمام ..» نظر عمر فرأى رجلًا يسير في تؤدة وإطراق ، أبيض الوجه ذا لحية رمادية ، وعلى رأسه عمامة نظيفة أنيقة ، يرتدي جلبابًا أبيض ، من فوقه عباءة حريرية ، وعلى الرغم من التواضع والإطراق إلا أن المشاهد يشم فيه رائحة من تعالٍ وكبرياء ، وتمتم عمر «يا له من والٍ مرفه!!»

ثم أذن المؤذن ، وخطب الخطيب خطبتيه ، واصطف الناس للصلاة . وما إن سلّم الإمام . حتى انتشرت الضجة في المسجد . وانبث اللغط هنا وهناك . وأخذ المصلون يتسابقون ويتزاحمون صوب الأبواب ، بينما وقف رجل رث الثياب ، معتل الصحة . ضارع النظرات . يقول كلمات استجداء ، ويمد يديه طالبًا الصدقات والعون من أصحاب النخوة . وأخذت الأجساد المتزاحمة ترتطم بعمر من كل اتجاه . حتى كاد يثور فيهم محتجًا على هذا السلوك الشائن في بيت الله . لولا أنه استغفر الله . واعتصم بالصبر . وتمتم ونحن نغادر المسجد : «لكأنما يفرون من وباء . أخشى أن تكون صلاتهم مجرد حركات ميتة لا روح فيها . أين الخشوع . والقلوب المعلقة بالله ؟! الوعاء خالٍ من أي شراب .. الشكل وحده هو ما تهتمون به . عبادتكم بلا جوهر .. أخشى أن يكون الأمر كذلك ..»

وصمت برهة ثم استطرد قائلًا : «لم أفهم إلا القليل مما يقوله خطيبكم .. ولماذا يمسك في يده أوراقًا . لكأن بهذه الأوراق ستارًا كثيفًا يفصل بين قلوبكم .. ماذا قال ؟ آه .. الميني جيب ؟ »

قلت وأنا أكتم الضحك : «بدعة جديدة ..»

– «ماذا تعني ..»

– «لباس قصير ترتديه النسوة فوق الركبة بكثير ، ألم تر شيئًا من هذا في الشوارع ؟ »

- « فهمت أن اليهود المنتصرين هم الذين يفعلون ذلك وحدهم .. »
- « إنه جنون أصاب العالم كله .. »
- « والمسلمون ؟! »
- « كثيرات منهن يفعلن ذلك يا أمير المؤمنين . »

احتقن وجه عمر، ودمدم مغتاظًا : « أليس فيكم رجل رشيد ؟! »

- « الرشيد موجود، لكنه يصول ويجول في حيز الكلمات، وليس له أدنى سلطة في مجال التنفيذ .. »
- « هناك يا ولدي أقوام تردعهم الكلمات، وآخرون لا يلزمون الجادة إلا بالعصا ،! إنكم مسلمون لكن بأخلاق اليهود .. »

تمتمت في أسى : « هذا قول حق » أجل .. أصبح الدين كلمات مجردة .. ونصائح تلقى، ودموعًا تسكب، وأعيادًا تصام، لقد استطاعت الأيدي القذرة أن تنزع عنه السلطة والسلطان، وفرط رجاله في الأمانة، وتنازلوا عن حقهم، فانزوى في المقابر والزوايا ومجالس الذكر والمكتبات .. « هذا حق يا أمير المؤمنين »

وبعد فترة تفكير قال عمر : « إن هزيمتكم قديمة . أرى أن قوة خفية قد تآمرت عليكم . واستلت الإيمان من بين حناياكم، وحشت قلوبكم بالورق والدمى المشوهة .. كان الرجال في

المسجد يستمعون إلى الخطيب دون انفعال .. وكان الخطيب يهدر بصوت لم أر لقوته مثيلًا .. لكنه ثرثر كثيرًا بلا مبرر .. وكان أكثر اهتمامًا بتزويق الكلمات ورصف العبارات، ومخارج الحروف .. والمصيبة أنه كان كثير الأغلاط .. حتى الأسلوب العربي كان يخرج من بين شفتيه مهلهلًا غريبًا .. كيف تسيئون استعمال الكلمات والقرآن بين أيديكم .. إنه الميزان .. أنتم غرباء حقًا .. إنني أكاد أنكر كل شيء أراه وأسمعه .. أنتم أكذوبة كبرى في التاريخ ..حياتكم وفكركم وعلمكم زيف لا مثيل له .. وجودكم مستعار .. أين المسلم ؟! لابد أن تبحث عنه ..

ابتسمت في مرارة . آلمتني كلماته أشد الإيلام، لكنها كانت تصرخ بالحقيقة . المأساة طويلة متشابكة . جذورها ضاربة في أعماق وجودنا . تغلفها الحيرة والشك والظلمة، وجيلنا مخدر .. تائه .. وأنا أشعر بالجوع الشديد ..

- « يا أمير المؤمنين .. ألا تريد أن تأكل ؟! »
- « لم أشعر بالجوع بعد .. »
- « حان وقت الغداء .. »
- « نحن قوم لا نأكل إلا إذا جعنا »
- « للطعام أوقات معينة تحددها ظروف العمل، ونصائح الأطباء .. »
- لا شك أنكم جميعًا مرضى بداء المعدة .. »

وسرعان ما نسى موضوع الطعام، وأخذ يتفحص الطريق ويرمق الغادين والرائحين، مشدودًا إلى ضجيج العربات، ودقات الأجراس وأزيز الطائرات.

– «ما هذا البناء؟»

– «كنيسة القيامة يا أمير المؤمنين ..»

– «هل حاقت النكبة بالنصارى أيضًا؟»

– «أجل ..»

واستدرك: – «هل أمريكا دولة يهودية؟»

– «بل تدين بالمسيح ..»

– «وكيف تركت أخوتها من النصارى، وآزرت اليهود الذين حاربوا عيسى، وحاولوا صلبه ؟!»

– «أمر يطول شرحه ..»

– «من العسير أن أفهم مبررًا لما يجري في عالمكم» مساجدكم ضخمة، يروع الناظر رونقها ونظافتها، ومنابركم عالية مزينة بالزخارف والألوان الوقورة .. والثريات المدلاة من السقف تفوق ثريات قصور كسرى وقيصر .. وازدحام العبّاد يروع البصر .. وتجيدون ترتيل القرآن .. لكنكم في الحضيض .. تناقض مذهل .. أرى الفتنة تطل برأسها في كل مكان .. كيف تجمع اليهود، وكيف أصبح لهم كيان ؟!»

– هززت رأسي في أسى وقلت: «بالصبر .. والتدبير المحكم، والفكر الساهر .. والعلم الجديد .. وقوة المال .. سيطروا على مقدرات الدول وكبار الشخصيات ..»

قال: – «سرقوا من المسلمين بعض فضائلهم ..»

ومضى في طريقه خطوات، ثم قال: «لكنهم يفتقدون الشيء الأعظم»

– «ماذا؟»

– «العقيدة»

– «عندهم «توراة» يا أمير المؤمنين»

– «ذلك التحريف والزيف الذي صنعوه بأيديهم، أما زالوا يسمونه التوراة ؟! ما أشد ما تخدعون بالمومياوات المتعفنة ..»

وفجأة دوىّ انفجار هائل. رج الأرض تحت أقدامنا رجًا، فتطاير الزجاج والأخشاب، وانقذفت الأحجار، وسد الأفق غبار ودخان، وروائح كريهة، ثم تعالت الصيحات من جميع الأنحاء وهمس عمر: «ماذا جرى؟»

قلت وأنا أرتجف: «هيا بنا لنختبئ وإلا ساقونا إلى الجحيم ..»

– «لن أتحرك قبل أن أفهم كل شيء ..»

– «إنها يا أمير المؤمنين متفجرات وضعها الفدائيون الفلسطينيون عند نقطة حراسة يهودية، تسيء إلى العرب أشد

الإساءات . فنسفتها نسفًا . ولا شك أنها قتلت جميع من فيها ، وفي لحظات ستنقلب الدنيا رأسًا على عقب .. هيا بنا ..»

ثبت عمر في مكانه طالبًا المزيد من الشرح ، بينت له أن المتفجرات نوع من أسلحة الموت والدمار الحديثة ، وأن العرب الفلسطينيين أصحاب الأرض التي استولى عليها اليهود لم يستسلموا . وهم يواصلون جهادهم سرًا بإمكانياتهم البسيطة ويؤرقون على العدو أمنه في الليل والنهار ، ويقومون بنشاطهم متخفين ، حتى لا تفضحهم نقط الحراسة ، أو يدهمهم العدو من كل جانب ، بعضهم يا أمير المؤمنين يقضي نحبه شهيدًا في المعركة ، والبعضُ تكتب له النجاة ، وآخرون يُقبض عليهم ويساقون إلى ظلام السجون حيث العذاب الرهيب ، والموت القاسي » .

هز عمر رأسه في دهشة وقال : «برغم انتصار العدو ، وتفوقه الساحق ، وعلمه ودهائه ، برغم كل هذا يأتي رجال قلائل يفعلون كل ذلك ؟ »

قلت باعتزاز : «نعم »

ارتسمت على ثغره الطاهر ابتسامة عذبة أضاءت وسط الدخان والغبار ، وقال : « هم بقية الخير في دنياكم .. قد يكون هؤلاء هم المسلمين الذين لم أجد لهم ريحًا في الشوارع والمساجد ..» نسيت ما حولي ، وشردت في عالم آخر وأنا أغمغم : « هم يعيشون هناك .. في الأغوار والوديان .. وعلى

قمم الجبال ، يكدون في الليل والنهار .. قد باعوا أنفسهم لله .. يخوضون الموت والخوف واليأس شجعانًا وبالجهاد يتعبدون ..»

نظر عمر إلى الأفق البعيد وتمتم هانئًا : « أريد أن أراهم ..»

ثم التفت إليّ فجأة وقال : «لماذا لم يتحدث خطيبكم عنهم »

– «خطيبنا مراقب ، والسلطات اليهودية تحدد له موضوع الخطبة ..»

– « إذن فهم الذين يخطبون ..»

قلت والحسرة تأكل قلبي : « إذن فهم الذين يخطبون ..»

– «حتى في بلاد المسلمين يحدث شيء كهذا .. ما يرضى الحكام فهو من الدين ، وما يتعارض ووجهة نظرهم فهو كفر وإلحاد .. لقد صنع لنا الذل دينًا جديدًا من الفكر الضرير ..»

لكني لمحت في السماء طائرة « هليوكبتر » تحلق ، ورأيت سيارات العدو ومصفحاته قادمة مسرعة ، فهتفتُ في خوف : « هيا يا أمير المؤمنين ، قبل أن يدهمنا العدو ، ويوجه إلينا تهمة وضع المتفجرات ، والانتماء للمنظمات الفدائية ..»

لم نكد نلتفت حتى أحيط بنا من كل جانب ، فوهات المدافع الرشاشة مصوبة نحونا ، ونظرات الحقد تحاصرنا .. لقد وقعنا ..



الفصل ٤

حطت أحزان الأرض على قلبي الباكي .

لم أكن خائفًا على نفسي . كان قلقي من أجل الخليفة يشجب كل أنانية . إن جيل الكراهية الصهيوني لا يفرق بين الأنبياء والشياطين ، من قديم كانوا يقتلون الأنبياء . الرحمة في نظرهم بلاهة ، أنا أعرفهم ، والعفو لابد له من ثمن كبير يأباه الشرفاء ، والإخاء ضعف أو عجز . ليست هذه أول مرة تحاصرني فيها نيرانهم وكراهيتهم . كثيرًا ما ساقوني إلى معسكرات الاعتقال ، وفي كل مرة كانت تثبت براءتي بالدليل القاطع . لكني لم أكن لأخرج من ظلام العذاب إلا بعد السياط والصفعات والشتائم والجوع والظمأ .. وعمر بن الخطاب ضيف عزيز حبيب . لا هوية معه . يرفض الاستسلام والخنوع . من يفعل ذلك معهم لا يخرج إلا إلى القبر . أنا أعرفهم . يريدون أن يقضوا على أي رجل تشي تصرفاته بفضيلة . أعداء الفضائل هم لكن يا عجبًا .. الخليفة يقف مرفوع الهامة ، هادئ الأعصاب تنير الابتسامة وجهه ، يتوقد في عينيه الإيمان ، ويبارك سمته يقين من نوع فريد ، قلت له : « ألا تخاف ؟! الجنون والكراهية والجوع إلى لحوم الأبرياء .. تحاصرنا من كل ناحية .! »

قال بصوت واضح النبرات : « علمني حبيبي أن الخوف مضيعة للجهد ، وإتلاف للوقت ، وإفساد للإيمان .. وذل ما بعده ذل .. »

ثم التفت صوبهم قائلًا : « ماذا تريدون منا ؟ »

– « هذه الجريمة أنتم صانعوها .. »

– « وما دليلك ؟ »

– « أنتم عرب أولًا .. وتواجدتم هنا ثانية .. طبيعتكم الغدر والتخريب .. »

وكدت أصعق وأنا أرى عمر يرفع يده ، ويهوي بها على وجه الضابط قائلًا : « أيها الأحمق ، تقيم دعائم القضاء على نوازع الشك والظنون ، وتسب أهل الدار »

وانقض الأبالسة على الخليفة ، وفي لحظات وجدت يديه خلف ظهره وقد غللتا بقيد حديدي ، وتتابعت طلقات لا أدري مصدرها ، فانبطحت على الأرض ، وأنا في شبه غيبوبة وكأني أعاني من كابوس رهيب . وأفقت على يد حانية تمسح على رأسي . ونظرت وإذا بعمر يقف هادئًا باسمًا بلا قيود أو مخاوف . وهتفت : « ماذا جرى ؟ »

– « هأنت تراهم مجندلين . »

– « لا أعرف .. كل ما أستطيع أن أقوله أن القوة لله جميعًا .. لا شك يا أمير المؤمنين أن رجال « فتح » كانوا يتابعون المشهد المثير .. »

ورأيته ينظر إلى الأفق المغبر الحزين، كأنما يخترق حجب الزمان والمكان. ويترنم بنبرات تفيض بالشجن الحنون: «وفي يوم «الأحزاب» يا فتى احتشد الكفر بشتى قبائله وأسلحته ودهائه. وحاصروا «يثرب».. أتعرف؟ وحفرنا الخندق مثلما أشار «سلمان الفارسي». كان الإفلات من هذا الحصار اللعين - كما يبدو للعقل - ضربًا من المستحيل. وحوصرنا أيضًا بالجوع. والبرد.. والنفاق.. كنا قلة من الرجال والسلاح والمال والأقوات.. أتعرف؟ وكان يهود بني «قريظة» حلفاءنا.. كانوا يحمون المدينة من الخلف، ويمدوننا ببعض القوت.. ثم نقضوا العهد والميثاق في أحلك الأوقات.. وانحازوا للأعداء، أصبحنا بين نارين.. معنى ذلك - في نظر العقل - الموت والفناء لنا جميعًا.. أتذكر ذلك؟ لست أروي أسطورة من صنع الخيال. كان حبيبي رسول الله ﷺ يعدنا بكنوز. كسرى وقيصر في هذا الوقت بالذات.. من يصدق ذلك؟ وضحك بعض الرجال قائلين: يعدنا محمد بكنوز كسرى وقيصر، والواحد منا لا يأمن على نفسه من الذهاب إلى الغائط.. والمثير في الأمر أن رجلًا، جليل الشأن، من الأعداء قدم إلينا يعلن إسلامه.. هل جاء ليحمل قسطًا من الهزيمة والعناء؟»

ومسح عمر على جبينه ولحيته، وازدادت ابتسامته إشراقًا واستطرد: «وانتصرنا.. ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا ..»

أجل .. انتصرنا على الخوف بالإيمان .. وهرعنا إلى الموت فكتبت لنا الحياة ..»

وابتلع عمر ريقه: «ولن تخلو الدنيا من الإيمان والمؤمنين في عصر من العصور ..»

قلت في اضطراب: «أرى أن نسرع قبل أن يدهمنا العدو ..»

قال عمر دون أن يعاني من أي قلق: «يجب أن نرحل عن هذا المكان الآن»

وبعد قليل استطعنا أن نركب سيارة كبيرة «أتوبيس»، كانت مقاعد الدرجة الأولى كلها مشغولة، وكان الركاب مشغولين بالحادث، وعبرنا المدخل إلى الدرجة الثانية، كنت أجد حرجًا بالغًا في أن يندس الخليفة وسط ازدحام الشغيلة، لكنه لم يبد أدنى تأفف، وبينما كان يشق طريقه إلى مؤخرة السيارة، أمسكت بيده فتاة وقالت: «هذا هو يا إيلي»، لن أدعه يفلت مني هذه المرة، جذبها «إيلي» من يدها في عنف قائلًا: «هذا النوع من التسلية يثير في نفسي التقزز»

– «لكنني أريده يا «إيلي»

وعلق أحد الساخرين قائلًا: «اعطه لها يا أخ .. لله يا محسنين ..»

هب «إيلي» من مقعده غاضبًا. وتواثبت نظراته في أنحاء العربة، ثم قدم إلى الخليفة، وقال والشرر يتطاير من عينيه:

«إذا لم تغادر السيارة، فسأقذف بك في عرض الطريق كي تتحطم عظامك ..»

وقذفت بنفسي بينهما، مستعدًا للتضحية بحياتي كيلا يصيب الخليفة بأدنى أذى، ورأيت الخليفة ينظر إليه في دهشة ويقول: «ليس لك الحق في أن تنزلني عن هذه الدابة ..»

وضحك بعض الركاب لسماعهم كلمة «الدابة»، ومضى الخليفة في حديثه: «لقد دفعنا ثمن الركوب .. ثم إنك لا تستطيع أن تنفذ تهديدك؛ لأنك أضعف من أن تفعلها ..»

ورفع «إيلي» قبضته في جنون، محاولاً أن يهوي بها على وجه الخليفة، لكنه التقط قبضته، واعتصرها بعنف، حتى إن «إيلي» أخذ يصرخ مستغيثًا، والضحكات الساخرة تهز أروقة السيارة هزًا، والتعليقات الشامتة تلهب وجه «إيلي» بلذعاتها ..

وأسرعت راشيل، وجرت «إيلي» من يده، قائلة: «هذه محطة النزول .. لقد أسأت إلى نفسك إساءة بالغة ..»

غمغم في حقد: «تفعلينها ثم ترمينني بالعقاب ..»

الفصل ٥

في نهاية المطاف بلغت منزلي، وهو في الحي العربي القديم من القدس، وهو مكون من شقة صغيرة ذات حجرتين وصالة، ولم يكن يسكن معي سوى أمي التي ناهزت الستين من عمرها .. رحم الله أبي .. كان رجلاً صالحًا، وكان يمتلك «كشكًا» خشبيًا صغيرًا يبيع فيه المشروبات الغازية والأوراق والأقلام والصحف وحلوى الأطفال .. وفي «حزيران» أصابت قذيفة عمياء الكشك بمن فيه وما فيه، انتهى أبي .. بكيت كثيرًا .. تمامًا كما بكيت على إخوتي الذين ماتوا في الميدان ..

كان البيت، برغم تواضعه ومظاهر الفقر التي ترتسم عليه، نظيفًا هادئًا رطبًا، أرضه مفروشة بنوع رخيص من «الأَكْلِمَة» المحلية، لكنه جميل، والبيت تغذية الكهرباء والمياه النقية، وعلى حيطانه، المطلية بالجص الأزرق الخفيف، عدد من الصور، أهمها صورة أبي الشهيد. وتقويم للشهور العربية والأفرنجية، وخريطة لفلسطين الماضي، ولافتة مكتوب عليها بخط كبير «الله» وساعة حائط ..

أدخلت الخليفة حجرتي الخاصة، وأسرعت إلى أمي: «كيف أزف لك البشرى؟! لن تصدقيني ..»

– «خير .. هل تحركت الجيوش العربية، وحان الخلاص ..»

– « بل حل في دارنا فخر لا يدانيه فخر ..»

قالت في شيء من الملل : « هل أعد لك الطعام ؟ »

– « لم لا تهتمين بالأمر ؟! »

– « أعرف .. أحد رجال المقاومة ..»

قلت وأنا أحتضنها وأغرق جبينها بالقبلات : « عمر بن الخطاب ..»

نظرت إليّ في شك ، لمحت الخوف في نظراتها ، ودموعها توشك أن تنفرط ، فأسرعت قائلًا : «لست مجنونًا .. لسوف تقوم الدنيا وتقعد عندما ينتشر الخبر .. أتؤمنين بقدرة الله يا أمي ؟ »

وبدا الاهتمام على وجهها ، وحملقت في دهشة ، وقالت في شرود : « وكيف يجيء عمر إلى زمان الشياطين ؟! »

– « أقسم إني لا أكذب .. رأيته هناك .. سمعت كلماته .. لكأني أنهل من نبع النبوة .. إن شيئًا كبيرًا يحدث .. وحذار أن يخالجك الشك في قدرة الله .. أعدي الطعام .. وافرحي يا أماه ..»

وأسرعت بالعودة إلى أمير المؤمنين ، تاركًا أمي في حيرتها ودهشتها ، وفي حجرتي الخاصة مكتبة صغيرة بها بعض الكتب الدينية والسياسية والأدبية وعلم النفس والفلسفة ، كان عمر يجلس فوق أريكة خشبية مكسوة بحشية مريحة . وأشار إلى صفوف الكتب قائلًا : «ما هذا ؟ »

– « مجموعة من المصنفات ذات موضوعات مختلفة ..»

– « لكنها صغيرة الحجم »

أعرف أن الكتابات القديمة كانت تسطر على العظام والخشب وبعض أجزاء النخيل والأحجار . أمسكت بواحد من الكتب قائلًا : « إن به كثيرًا من العلوم . فالأحرف صغيرة ، والأسطر كثيرة ، وذلك بفضل اختراع الورق والطباعة » .

وأبدى عمر سروره لهذا الاختراع العجيب ، وازداد عجبه حينما علم أن آلة الطباعة تستطيع أن تخرج عشرات الألوف من النسخ في وقت قصير ، وابتسمت وأنا أقدم له كتابًا آخر .

– « هذا كتاب عنك » .

بانت الدهشة في عينيه وقال : « عني أنا ؟! »

– « أجل ..»

– « أيعرفني أهل هذا الزمان ..»

– « ربما أكثر مما عرفك الأولون .. إن لك دويًا هائلًا في الشرق والغرب ، لك اسم طنان يتردد صداه في كل صُقْع من الأصقاع .. النصارى كتبوا عنك أكثر مما كتب المسلمون .. ولك عشاق ومعجبون ، كما أن لك أعداءً وناقدين .. هم يعرفون تفاصيل حياتك .. كيف كنت في الجاهلية .. وكيف أسلمت .. وصحبتك لرسول الله ، والمعارك التي خضتها ، وحروبك في فارس والروم .. وآراءك الكثيرة التي تعالج شتى الموضوعات .. وصلاتك بغيرك من الرجال .. حتى أمورك

العائلية .. تصور .. وأيضًا استشهادك على أيدي الحاقدين والكائدين للإسلام .. لست في حاجة إلى تعريف ..»

كان عمر ينظر إلى وهو لا يكاد يصدق ، وأخذ يتحدث عن الرواة ، الأمناء منهم والمنتحلين ، وأولئك اللذين يركبون متن الخيال الجامح ، ثم تناول الكتاب وأخذ يتصفحه ، وظهر لي أنه يجد صعوبة في قراءة بعض الكلمات لتغير صورة الحروف عن مثيلاتها أيام النبوة ، فطلب مني أن أقرأ صفحة من صفحات الكتاب ، فتناولته وأخذت أقرأ :

« .. فلما كان الغد . جلس أبو بكر في المسجد . وقام عمر يعتذر إلى المسلمين . عما ذكره من أن النبي لم يمت فقال : « إني قلت لكم بالأمس مقالة ، ما كانت مما وجدت في كتاب الله ، ولا كانت عهدًا عهده رسول الله . ولكني قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا . ويبقى ليكون آخرنا ، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسوله . فإن اعتصمتم به . هداكم الله به كما هداه به . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم . صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثاني اثنين إذ هما في الغار . فقوموا فبايعوا » وقام الناس جميعًا . فبايعوا بيعة العامة . بعد بيعة السقيفة ..»

ثم طويت الكتاب . كان عمر يهز رأسه وأنا أتلو الفقرات ، وكانت الدموع تتساقط من عينيه . وتبلل لحيته البيضاء . وأخيرًا سمعته يقول وهو يجفف دموعه : «كانت أيامًا رهيبة » إن موت

رسول الله ﷺ صدمة لم أحتملها في البداية .. هذا حق . لم أكن أعرف ماذا أقول ولا ماذا أفعل ، وكان أبو بكر الصديق أعظمنا إيمانًا ، وأقوانا يقينًا ، وتقبل الأمر بحصافة وفهم كامل ، أنتم تعرفون الكثير عن حياتنا ..»

قلت وأنا أقاوم ترددي : « ونعرف اختلافك في الرأي مع خالد بن الوليد .. والناس في عصرنا يختلفون عليه كما اختلف المسلمون في زمانكم ..»

رفع عمر وجهه الطاهر إلي وقال : «كان الأمر أبسط مما تتصورون .. كان خالد شجاعًا مؤمنًا ، وكان قائدًا محنكًا ، وجنديًا ماهرًا ، هذا لا مراء فيه .. لكن ليس هناك بشر منزه عن الأخطاء .. وقد رأيت لأسباب عدة تتعلق بكيان الأمة وأمنها أن أنحي خالدًا .. وقد فعلت .. وتقبلها خالد ، كان أمر الدين ، وصلاح الرعية فوق الأفراد مهما سموا وحققوا من انتصارات ..»

قلت : «وتحدثت مئات الكتب عن شجاعتك وعدلك وزهدك وبعد نظرك ، وعزوفك عن الدنيا وزيفها وبريقها ، كنت أروع مثل يضوع مسكًا في رحاب التاريخ ..»

لوّح بيده محتجًا وقال : «حاشا لله » لم أكن امرءًا بالغ السمو والعفة ، كنت بشرًا بكل ما تحمله كلمة «بشر» من معاني .. وكان هناك عشرات الألوف من المسلمين لا يقلون عن عمر ورعًا وتقوى إن لم يفوقوه شجاعة وعدلًا وإيمانًا .. الحق

إني كنت أقلهم حفاظًا على الدين ؛ لأن الحكم يجر إلى كثير من الهنات ، بل والخطايا في بعض الأحيان .. وأخذ يجفف دمعة تسربت من بين أهدابه : «كنت أرهب لقاء الله .. لو عثرت بغلة في العراق لسئلت عنها أمام الله لم أُسوّ لها الطريق .. مسئولية الحكم مسئولية كبرى ، ولعلها ستنقص من موازيني يوم الحساب ..»

قلت في رضى : « إنه تواضع منك »

صاح في حدة : « أنا لا أتواضع لأعلو ، وأكره الزيف والنفاق ، لم أكن لأهمل وزر الحكم حيًا وميتًا . ولهذا اشترطت ألا يكون ابني خليفة من بعدي »

وقطع الحديث طرقات على باب الغرفة . كانت أمي قد أحضرت الطعام فتناولته منها ، ووضعته على الطاولة ، وقلت : « لا شك أنك جائع الآن »

نظر إلى المائدة العامرة وقال : «ما هذا ؟ دجاج .. ولحم خراف .. وخضراوات طازجة ومطبوخة .. وفواكه وبقول ، وأشياء أخرى لا أعرف لها اسمًا ..» .

– « وماذا نأكل ؟ »

– « ألديكم تمر وبلح ..»

– « أحيانًا ..»

ثم أمسك بشوكة وملعقة وسكين وقال : « وما هذا ؟ »

– « أدوات نستعملها كي لا نأكل بأيدينا مباشرة »

– «تعقيد في كل شيء .. حسبتها نوعًا من الأسلحة الصغيرة ..» .

سَمَّى باسم الله ، ثم دعا : « اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار » وتناول رغيفًا وقطعة من اللحم وبضع بلحات ، كان يأكل في تأن ويمضغ جيدًا . يحمد الله من آن لآخر ، ويشرب جرعات قليلة من الماء ، وقال : « ماؤكم شديد البرودة .»

– « شكرًا للثلاجات ..»

قال وهو يمسح على فمه النظيف براحته : « الشكر لله » ..

ولاحظ عمر أنني آكل بشراهة ، لقد عانيت من الجوع : «لسوف تصاب بالتخمة .. إن ربع ما أكلته يكفيك ..»

– « بي نهم شديد ..»

– « ضعف إرادة » معدتك تصاب بالشيخوخة والوهن ..»

قلت : « هذه هي الطيبات التي أخرجها الله لعباده ..»

– «معاذ الله يا ولدي ، أنا لا أحرمها .. ولكني أدعوك إلى الاعتدال والقصد .. أنسيت .. « وإذا أكلنا لا نشبع » .

– « حق ..»

وعاد الخليفة يقول : « ألا تلاحظ أنه إذا امتلأت معدتك ، فإن أعضاءك تسترخي ، فتلوذ بالكسل . وتخلد إلى النوم .. وأنتم تحاربون ..»

وسمعنا ضجة لدى الباب . دق قلبي من الخوف . وتوقف فمي عن الحركة ، وظلت يدي معلقة كيد تمثال صخري ، وهتفت

أمي من الداخل «لقد جاء الشياطين ، أرى مصفحاتهم وسياراتهم من النافذة - ألا تهربون ؟ ..»

لم أكن أدري ماذا أفعل ، إنها الطامة هذه المرة ، وعودتهم تعني أمرًا خطيرًا . وإذا لم يجدوا « الجاني » ، فستقع النكبة على رأسينا ، وكيف نستطيع إثبات البراءة أمام هؤلاء التتار ؟ وفجأة تحطم الباب ، ووجدتهم أمامي ، امتلأت بهم الصالة .. نفس الوجوه .. وفوهات المدافع .. والعيون الحاقدة التي تقدح بالشرر .

كان عمر يسير بين الجنود مشدود القامة ، رائق البسمة . يتمتم ببضع كلمات يناجي بها ربه . وكنت في الحقيقة أرتجف ولكزني الخليفة قائلاً : «ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟!»

ثم ضحك في وقار : «لم أكن أتصورك على هذا الروع كله ..»

– « إنهم لا يرحمون ..»

– « وماذا وراء ذلك ؟ »

– « الموت يا أمير المؤمنين »

– « وهل سمعت ببشر أفلت من يد الموت ؟! »

– « لا ..

– « ففيم الجزع ..»

قلت وأنا أضرب على صدري : « إنه شيء في داخلي لا أستطيع مقاومته »

– « أشياء كثيرة في حياتكم لا تستطيعون مقاومتها .. تمامًا كما عجزت عن حدة الشراهة وأنت تأكل ..»

– يحزنني أن أموت قبل أن آخذ بثأري ..»

سدد إليّ نظرات عتاب : « هذا هو الغرور بعينه ، لكأن الدنيا يرتبط مصيرها بفرد واحد مثلي أو مثلك .. مئات الألوف من الرجال يولدون .. ويجاهدون .. وينتصرون .. وكثيرون يموتون .. مات حمزة في المعركة وعاش عمر .. لكن الحياة تسير .. كان حمزة فارسًا لا يشق له غبار .. هو عم الرسول .. من مات في المعركة فهو شهيد .. والشهيد حي لا يموت .. تقرءون ولا تؤمنون .. وتفلسفون ضعفكم ..»



الفصل ٦

السجن .. والليل .. والحرمان .. والمستقبل الغامض .. كلها تصنع عالمًا غريبًا منطويًا بذاته، يولد في حناياه أجنة مشوهة، يزفها سفاح قذر، لكأنما الحراس قد خلعوا لدى الأبواب قبل الدخول كل معنى من معاني الإنسانية، إنها غاية تكتظ بالأحزان، لها قوانينها الخاصة إن صح أن تسمى قوانين، في الحقيقة إنها نزوات بشر معتوهين، يستجيبون لغرائزهم الدنيا فيفعلون بالمساكين ما يحلو لهم .. حتى الجاني لا يصح أن يتعرض لذلك البلاء كله، يفترس الوحش وهو جائع، أما هم فيفترسون البشر ترفًا، وتوكيدًا لقدرتهم، واحتفالًا بالنصر المسروق، هؤلاء هم الصهيونيون خلف القضبان .. هنا ساحة التحقيق .. ورجال العدو منتشرون فيها، يملئونها صخبًا وضجيجًا .. نظر عمر فهتف: «ماذا أرى؟» وذهبت بعينيّ إلى حيث يتطلع، كان هناك عدد من الرجال، قد شُدوا إلى قضبان حديدية بالحبال، وتدلوا في الهواء، ينبعث منهم أنين متصل خافت، مجردين من ثيابهم، وفي أماكن كثيرة من أجسادهم خطوط حمراء تنزف دمًا قانيًا .. والمحقق يقول وهو ينفث دخان سيجاره في هدوء بارد غريب «نحن على يقين من أنك تسلمت المال في عمان، ودخلت به إلى الضفة الغربية، وأعطيته

لامرأة ملثمة، لكنك لم تخبرنا عن السلاح» والسجين يتململ، ويقول بصوت واهن «لا أعلم .. لا أعلم»، ويسدد المحقق إليه نظرات ثعبان أرقط، ثم يضع طرف السيجار المشتعل على خد السجين، والسجين ينتفض، لكنه مقيد ومشدود إلى القضبان، فيئن، ويعود المحقق للكلام: «المنشورات المعادية تسلمها منك طالب في المدرسة الثانوية، يلبس سروالًا قصيرًا، فما اسمه؟ أو أين مسكنه؟ ويهمس السجين «قلت لا أعلم. لا أعلم»

وعض الخليفة على شفتيه أسى، وقال: «أفرخ الحقد على مدى السنين في قلب بني إسرائيل. إنهم آفة العصر بلا جدال»

قلت - : «يا أمير المؤمنين .. أخفض من صوتك»

- «هل الكلمة جريمة؟»

- «أجل .. وخاصة إذا نبضت بروح النقد والاستياء»

تمتم مستغربًا: «فقير من فقراء العرب .. دخل إيوان كسرى شامخ الرأس .. وكان يضرب برمحه في بساطه .. وعمر لا يجرؤ على سؤال هؤلاء اللؤماء والسخط المجرد عليهم؟! لا كانت الحياة ..

قلت: - «يا أمير المؤمنين الأمر جد مختلف. هؤلاء متهمون بأنهم من الفدائيين .. والصهيونيون يعذبونهم لينتزعوا منهم الاعترافات»

أشرق وجهه الشاحب وهتف : «لكأني أرى بلال بن رباح .. وخباب بن الأرت .. وياسر .. وسمية إن في عصركم أمرًا عظيمًا كدت أجهله .. هؤلاءِ هم المؤمنون الصامدون حقًا ..

وقدم نحوى أحد رجال المخابرات ، والتحدي تشي به حركاته وملامحه ، ثم دفعني بقضبته قائلًا : «فيم تتكلمان ؟»

ثم رفع يده ، وحاول أن يصفع عمر ، وكم كانت دهشتي عندما رأيت الخليفة يمسك بيد الضابط قبل أن يحقق بغيته ، ويهدر : «أنزل يدك وإلا قطعتها ..»

تدخلت متوجسًا خيفة ، وقلت للضابط : «معذرة .. إنه شيخ كبير .. قضى معظم حياته في البادية ، ولا يعرف عن هذه الأمور شيئًا ..

لم أصدق عيني حينما بصرت «بإيلي» قادمًا ، وعلى ثغره ابتسامة تشف واضحة ، واقترب من عمر ، وغمز بإحدى عينيه قائلًا : «أخيرًا وقعت أيها «الدون جوان» .

تلفت عمر في غيظ وتمتم : «الدون ؟ هذا الأبله يسبني ..»

قهقه «إيلي» . بينما قلت مسرعًا : «لا يقصد ذلك بالتأكيد .. كلمة معناها أنك معشوق النساء ..»

– «لا أفهم ..»

– «أنسيت إعجاب «راشيل» بك ؟»

قلب عمر راحتيه ، ومسح المكان بنظراته ، ثم قال : «ما هذه الأعاجيب!! أهؤلاء هم الذين حاربوكمْ وانتصروا عليكم ، وتحكموا في رقابكم ..؟ كيف ؟ وظل «إيلي» يقهقه ، وأخيرًا قال : «لسوف أذهب إلى راشيل على التو ، وسأحمل إليها ذلك النبأ الطريف ..»

بين ساعة وأخرى يفد الحراس ، ويدفعون أمامهم رجالًا جددًا تحوم حولهم الشبهات ، ومن آن لآخر ، يجرد رجل من ملابسه ، وتنصب على جسده السياط ، وتلاحقه الشتائم المقذعة ، والمخابرات يمسكون بالأوراق والأقلام ، ويكتبون الأسئلة والإجابات ، وكأنهم في عجلة من أمرهم ، والكلمات التي تتردد هي : «السلاح .. الفدائيون .. المخابىء .. تكلّم .. اعترف .. الموت .. السجن .. سننسف بيتك .. سننكل بأختك وأمك ..» وقد تسمع فتى يصرخ من شدة الألم ، أو ينتحب آخر لهول الذل ، أو يزأر مقيد كما يزأر أسد حبيس في قفص من حديد ، وآخرون معتصمون بالصمت لا يتكلمون .. بل تنطلق من عيونهم نظرات مهولة ، يزيدها العذاب حدة وتوهجًا ، ورجال المخابرات الصهيونية يشربون الكئوس المترعة ، ويغنون ويرقصون .. ويضربون بالسياط .. ويوجهون الأسئلة .. وعمر يشهد كل ذلك ويدور بنظراته من مكان إلى مكان ..

– «إنها مواجهة من نوع غريب»

– «ماذا تعني يا أمير المؤمنين ؟»

– «صراع عنيف بين الحق والباطل .. أيام عسيرة حرجة تشبه العصور التي يُبعث فيها الأنبياء .. لشد ما أنا حزين لنكبتكم

الكبرى .. لكن رؤيتي لهؤلاء الصامدين خففت عني بعض الأحزان ..»

إن الخليفة لم يزل يحلق في أفق النكبة العامة، ينظر إليها من شتى الزوايا والمستويات، ويمحصها ويدرسها، ناسيًا أنه متهم، وأنه قد يُسأل بعد قليل، ولذا قلت: «يا أمير المؤمنين .. ماذا ستقول لهم؟ لسوف يسألونك»

هتف: «عار كبير أن يأتي يهودي ثمل داعر، ويقف موقف القاضي، على تراب المسلمين .. لقد اختل شيء كبير في هذا الزمان .. أن يمسك بمصيركم هنا حفنة من الكذبة والمحرفين .. سأقول أني عمر بن الخطاب .. سيضحكون. هم يكرهونني. أعرف ذلك على عهد الرسول. ودبروا قتلي .. لن يصدقوا مقالتي .. وأنا مسلم من بني عدي .. نشأت في مكة .. كنت أقوم بالسفارة لها، كنت عنيدًا عنيفًا في حربي لمحمد في البداية .. ثم أشرق في قلبي نور الإيمان .. ويومها ولدت من جديد.»

قلت في قلق: «هذا لا يهمهم في قليل أو كثير، لن يصدقوك، المهم الحادث»

– «أي حادث؟»

– «المتفجرات ..»

– «ماذا؟ أنت تعلم الحقيقة .. ليتني فعلتها .. لا يحق لي أن أنسب هذا الفضل إلى نفسي ..»

ونظرت خلفي، فوجدت رجلًا من المخابرات مختبئًا، ويسجل على آلة كل ما يقوله عمر، ثم استدار وواجه عمر، كان بودي أن أتفق مع الخليفة على إخفاء شخصيته إلى حين، وأن يختار له اسمًا مستعارًا، كي نتجنب العديد من المآزق .. لقد فات الأوان، وها هو رجل المخابرات الصهيوني يقول: «إذن فأنت عمر؟»

هز عمر رأسه في إصرار وقال:

«نعم .. ولتفعلوا ما شئتم، فأنا لا أهاب إلا الله.»

«دع الله الآن .. فأنا الذي أواجهك ..»

صاح عمر: خسئت ..»

وأخذ الرجل يقهقه سعيدًا، ويتمايل يمنة ويسرة، ثم يقيس عمر بنظراته، ويقول غامزًا: «تشبهه إلى حد كبير». وأخذ يحرك سبابته محذرًا: «أنا ولدت في القاهرة» أتعرف الأنتكخانة ..» نظر عمر نحوي فقلت: «دار الآثار القديمة» وقهقه رجل المخابرات مرة أخرى، وهو يقول: «مكانك هناك إلى جوار المومياوات والتحف ..» ثم تركنا وأسرع إلى رفاقه، وعاد بهم ليعرض عليهم الكشف الطريف، و«الحالة» الفريدة في نوعها، ووقف عمر بينهم عملاقًا متحديًا، ساخرًا من سفاسفهم.

– «إذن فأنت عمر؟!»

– «ولم لا؟»

- « والدليل ؟ »

- « قدرة الله .. »

- « الموتى لا يُبعثون »

- « بل يُبعثون أيها الكذاب .. خسئت .. »

- « ليس هذا أوان البعث .. »

- « وما يدريك لعل الساعة قريب .. »

وقال الرجل ساخرًا : « يا عمر .. لا أنكر قدرة الله ، لكن حوادث التاريخ المعاصر لم تشهد شيئًا خارجًا عن سنن الطبيعة .. لم تشهد معجزة .. »

وذهلت إذ رأيت عمر يمسك بأذن الرجل بين سبابته وإبهامه ويقول . « هذا كلام لا ينفي قدرة الله .. »

- « أنت لست فطن ، تدير المحاورات بذكاء .. لا شك أنك كنت دبلوماسيًا خطيرًا .. »

وضج رجال المخابرات بالضحك ، وأخذوا يتفحصون عمر دون أن يلمسوه . وقال رجل منهم « هذه حالة معروفة في كتب الطب وعلم النفس . إنه مرض من أمراض الجنون ، والتصدع النفسي ، هذا الشيخ يتقمص شخصية عمر بن الخطاب يزين له الوهم أنه هو ، في الحروب العنيفة تظهر أمراض غريبة . الهزيمة أثرت على أعصاب العرب .. وهم ولوعون بالماضي والبطولات القديمة ، يجترونها في ليالي الأحزان .. حالة هذا الرجل المرضية حالة طريفة ؛ لأنها أصابت رجلًا متقدمًا في

السن بعض الشيء .. سيفرح بها أطباؤنا في مصحات الأمراض العقلية والنفسية .. »

ومال أحدهم ساخرًا نحو عمر : « حدثنا عن فتوحاتك في فارس والروم »

- « ألا تعرف ؟ »

- « الغريب في الأمر أن قواتكم القليلة استطاعت أن تمسك بزمام الأمن في تلك المساحات الشاسعة التي يسكنها ملايين البشر!! كيف ؟! هذا هو السؤال .. إننا نعاني من نفس المشكلة اليوم .. »

وعلى الرغم من أن الحديث كان مجرد تسلية إلا أن عمر قال بصدق : « كنا دعاة قبل أن نكون محاربين .. حملنا إليهم نور الله .. أسعد لحظاتنا كانت يوم أن يأتي رجل يعلن إيمانه .. كنا نفرح بذلك أكثر من فرحنا بالاستيلاء على حصن أو هزيمة جيش .. »

وتطلع عمر إلى السماء وقال : « كانت بغيتنا أن نثبت اليقين في القلوب ، قبل أن نثبت أقدامنا على الأرض المفتوحة .. أصبح الذين آمنوا جزءًا من جيشنا .. »

قال الإسرائيلي : « نحن حملة حضارة مثلكم .. »

وقال عمر - « نحن حملة عقيدة أولًا .. وفي ظل العقيدة الخالصة الصادقة .. تنبت القيم الفاضلة ، وتولد الحضارات ويسعد البشر .. »

وتغيرت سحنة عمر ، وأشار بيده إلى الساحة الكبيرة وصاح

- « هل هذه هي الحضارة التي تحملونها يا أحفاد حيي بن أخطب وكنانة بن الربيع وكعب بن الأشرف ؟! »

ضجوا بالضحك من جديد ، ثم سادهم وجوم مباغت ، بينما استطرد عمر وكأنه يخطب في جمع من الناس .

- « انتصرتم في معركة واحدة ، فملأتم الدنيا ضجيجًا ودليتم الأبرياء على أعواد المشانق ، وعلقتم المظلومين من أرجلهم كالإبل الذبيحة .. أما نحن ، ويفصل بيننا وبينكم أربعة عشر قرنًا من الزمان ، فقد غزونا العالم بالنور ، وغمرناه باليقين ، لم يتدل مظلوم على سارية .. ولم تزهق روح بلا جرم .. ولم نغلق أفواه أحد .. كان كتاب الله يحكم لنا أو علينا .. »

وساد صمت ، ثم تقدم رجل آخر من عمر ، وسدد إليه نظرات دهشة وقال : « ليس هذا بكلام مجنون .. أقسم على ذلك »

ابتسم عمر قائلًا : « الكلام يشي بسر قائله في كثير من الأحيان »

وأردف الرجل : « إنه يحاول خديعتنا ، وأظنه أحد زعماء المسلمين الروحيين ، يرتدي زي خرافة .. »

رد عمر في ضيق : « استحال ذكاؤك إلى خرف ممتهن .. أنت المجنون »

احتقن وجه الضابط وصرخ : « أين وجدتموه ؟! »

وهنا ظهر « إيلي » وقال في تشفٍّ ظاهر : « كان في منطقة الانفجار .. وهرب .. »

- « خذوه إلى زنزانة ٦٤ وأعدوا له وجبة دسمة »

وقال عمر وهو يحرك سبابته منذرًا : « لن آكل طعامكم .. أنا لم أنس الشاة المسمومة التي قدمتها زينب بنت الحارث إلى الرسول غداة النصر في خيبر .. »

فضجوا بالضحك من جديد .

لم يكن الخليفة يعلم أن الوجبة الدسمة في مصطلح المخابرات تعني التعذيب الذي لا يطاق ، وعلى الرغم مما كنت أعانيه من آلام وأحزان إلا أني شعرت بشيء غير قليل من الرضى والاطمئنان حينما ساقوني أنا الآخر إلى زنزانة رقم ٦٤. كنت أفكر في الخليفة أكثر مما أفكر في نفسي ، وكانت كلماته المؤثرة لم تزل تطن في أذني ويتردد صداها في فكري ، فتزيدني يقينًا وصبرًا ..

يا لها من ليلة تلك التي قضيتها هناك ، لقد أخذوني بعد ساعة إلى ضابط التحقيقات ، الذي واجهني بملف كامل عن ماضيّ وعن تاريخ أسرتي منذ عام ١٩٣٦ ، وثورة عز الدين القسّام ، وعن أخي الذي يعمل في منظمة « فتح » كقائد بارز ، وزوج شقيقتي الكبرى الذي يعمل مهندسًا بالكويت ويجمع التبرعات للفدائيين ، ويلقي المحاضرات ، وعن أختي المدرسة بالقاهرة ،

تلك التي تنتسب لمنظمة نسائية عربية ، معروفة بنشاطها الكبير ، بالاختصار ، كانوا يعرفون عني أكثر مما يجب ..

تألمت كثيرًا لوقع السياط . وخاصة في البداية . إحساس بالظلم كاد يذهب عقلي ، وشعوري بالعجز آذى نفسي أشد الإيذاء .. العجز مأساة حارقة .. آه ، لئن كتبت لي الحياة فلسوف أنتقم لهذه الأحزان القاتلة .. الانتقام للمظلومين والمعذبين من جلاديهم حق مقدس .. وعدت إلى الزنزانة .. لم أستطع النوم ، كانت جراحي النفسية أشق وأقسى من جراح جسدي الذي يصرخ بالآلام الهائلة . وكان عمر يجلس إلى جواري ، ويربت على رأسي في حنان ، ويجفف دمائي بطرف ثوبه الأبيض النظيف ، فأشعر براحة كبرى ، وكنت أتطلع إلى وجهه الطاهر ، وأتذكر أنهم سوف يقتادونه في الصباح إلى الساحة الملعونة ، وأغمض عيني حينما أتخيل السياط المجنونة الكافرة وهي تهوي على وجهه .. وأصرخ «مستحيل .. مستحيل» فيقول في إشفاق : «ماذا بك يا ولدي ؟» ، فأقول ودموعي تنهمر : «لا أتصور أنهم سوف يعذبونك» ، فيتمتم : «وما يعلم جنود ربك إلا هو»

العجيب في الأمر أنه في اليوم التالي ، وحوالي الثانية عشرة والنصف ظهرًا ، وكان الخليفة يؤدي صلاة الظهر إمامًا بعد أن تيمم لعدم توافر الماء . جاء شرطي صهيوني ، يمني الأصل ثم نادى عمر .. وهتف باسمي أنا الآخر ..

عندما وقفنا أمام مدير السجن قال لنا وابتسامة صفراء تهوم على ثغره ذي الشفاه الدقيقة : «مبروك .. لقد ثبتت براءتكم .. وأمسكنا ببعض الجناة .. ولقد صدر أمر بالإفراج عنكم .. يجب أن تشكروا المواطنة الإسرائيلية راشيل .. إنها مواطنة شريفة ..»

وغمرتني موجة من الفرح ، لكني سمعت الخليفة يقول : «وأين هؤلاء الـ .. «الجناة» .. لشد ما أنا متشوق لرؤياهم ..» أمسكت بيد الخليفة في رقة ، وقلت ضارعًا : بالله عليك .. هيا بنا .. فهذا مطلب عسير التحقيق .



الفصل ٧

ومضينا في الطريق العام بخطى وئيدة، كانت تثقلني الذكريات، وتحاصرني المشاهد المؤلمة، لكني تذكرت كيف نجونا من هذه الكربة الطارئة، فحمدت الله، وسجدت روحي شكرًا له، ماذا لو سارت الأمور في مجراها المعروف في مثل تلك الاتهامات الجزافية؟ وخيل إلي أن عمر مؤيد بقوة علوية قادرة على إزالة العقبات التي يضعها الأعداء في الطريق، وإلا فكيف أفسر ذلك التصرف من «راشيل»؟ كيف يقضي الخليفة هذه الفترة في السجن دون أن يمس بأذى! كان عمر يمضي مطرقًا ساهمًا حزينًا، لا يكاد يُعير أي شيء في الطريق أدنى اهتمام، قلت: «ما يكربك يا صاحب رسول الله وقد نجونا من ظلمهم؟»

نظر إلي عاتبًا، كانت نظرته تحمل العديد من المعاني، وأخذ يقول: «تركنا في ظلام السجن وراءنا عديدًا من الأبرياء.. مال أحدهم عليّ هامسًا: سأعطيك عنوان أختي المسكينة التي استشهد زوجها معنا هنا، كي تعطيها بعض المال.. فلم لا أحزن.. كم امرأة وكم طفلًا وكم شيخًا الآن يقاسون الحرمان والجوع!!»

وأخذ عمر يحدثني عن واجباتنا نحو الأسر التعسة، وينحي باللائمة على تحجر قلوبنا، ويؤكد أننا نفتقد التناسق والتكامل

اللازمين في مثل هذه المعارك العنيفة، فقلت له: «أي أمير المؤمنين، نحن دولة ممزقة.. احتلت أرضها، وتشرد شعبها في كل واد، وليس لنا حكومة ولا ميزانية ولا أجهزة إدارية.. فلسطين الآن مجموعة من المشردين أو المحاربين أو السجناء.. إنك تحملنا ما هو فوق طاقتنا

هز كتفه في رفض وقال: «ما هي فلسطين؟ أليست رقعة صغيرة من أرض الإسلام؟ وأين بقية المسلمين وحكامهم؟ أنت تتكلم كلامًا غريبًا، حتى لكأن الرابطة العقيدية قد تمزقت تمامًا..»

قلت: «البعض يمدوننا بالسلاح، والبعض الآخر يجود علينا بالمال، وكل هذا للمجاهدين، وبعض الدول تفتح الباب لإخوتنا ليعملوا ويرتزقوا.. وهناك دول تقاسي مثلما نقاسي من عدوان ومتاعب.»

وبدا لعمر أننا نناقش الأحداث بطريقة هروبية، ونلتمس المعاذير للانحرافات والتقصير، كان اقتناعه الكامل بأن الأمة كلّ لا يتجزأ، وحدة صلبة.. الطعام فيها لجميع المسلمين، والرجال في كل أرض أفراد في جيش واحد وإن اختلفت اللغات والألوان، أو نأت الديار، ومسئولية أي حاكم مسلم نحو شعب فلسطين المهزوم تضاهي مسئوليته تجاه أي فرد من شعبه، وتمتمت دون وعي وأنا أستمع لكلمات الخليفة: «أحلام»

– «ماذا؟»

– «معذرة .. الواقع المرير يجعلني أهذي»

هتف في حدة: «ولم اليأس؟ تلك حقيقة الدين من قديم، وواقع التجربة الرائدة في التاريخ .. انظر .. لقد ابتليتم بالأنانية على مستوى الفرد والدولة .. لم لا تحطمون هذه القيود والسدود؟ امتزجوا .. تآخوا .. ودوسوا الأسلاك الشائكة التي تفصل بينكم .. واحفروا قبرًا لكل بادرة من بوادر التفرقة ..»

لم أستطع السكوت، بينت له الدول التي اعترفت بإسرائيل وتبادلت معها العلاقات الاقتصادية والثقافية والتجارية، وارتبطت معها بأواصر المنفعة والصداقة، قال: «انحراف الراعي من صنع الرعية ..»

– «الرعية لا حول لها ولا قوة ..»

– «يا عجبًا .. إنه بدونها لا يساوي شيئًا، ولا يحقق نصرًا»

– «الرعية يا أمير المؤمنين تُؤمر فتطيع ..»

– «والحاكم؟ أهو من طينة أخرى غير طينة الناس. آه .. وقف رجل في المسجد وصاح .. والله لو رأينا فيك يا عمر اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا .. وحمدت الله لأن في الرعية، من يقومني بسيفه .. آه .. وتتكلمون عن الحرية والحضارة والتقدم في عصركم ..

قلت في أسى: «كان ذلك في عصر عمر ..»

صاح في حدة: «لكن عمر ليس شيئًا ..»

– «كنتم إسلامًا يمشي على الأرض ..»

– «حضارة عصركم تلد أجنّة مشوهة ..»

ضحكت في حزن: «وفينا من يحاول خلق الأجنة في أنابيب اختبار ..»

في كل لحظة يكتشف عمر جديدًا مثيرًا أو مخزيًا أحيانًا، فيبدو على وجهه الكريم الغم والكدر، كان أشد ما يؤلمه أن أناقشه أمرًا يبدو له بسيطًا غاية البساطة، ولشد ما كانت تحزنه أفكارنا العيية المتعثرة إزاء تلك البديهيات، وكان يردد دائمًا أننا مخدوعون، وأننا نهتف بالمبادئ بأفواهنا ولا نتمثلها، أو ندعها تسري في قلوبنا وأرواحنا،

ثم انتزع نفسه فجأة من سيل الحوار العاصف وقال: «مال عليّ أحد المحبوسين وقال: «الأمانة في جوف المقبرة، هناك .. عند سور باهر ..» حاولت أن أفهم كلماته فلم أستطع، استفسرت منه، فأشاح بوجهه يائسًا .. قلت لنفسي لعله يهذي لما انتابه من آلام وأرق ..»

توقفت عن المسير، وهتفت في اهتمام: «هل قال ذلك حقًا؟»

– «عجيب أمرك .. أنا لا أروي إلا ما حدث» ..

– «هذا نبأ سار، كنا ننتظر هذه الرسالة منذ وقت طويل ..»

قال في دهشة: «أية رسالة؟»

- «تلك رموز نعرف معناها، لقد انتظرنا حامل الرسالة طوال هذه الفترة دون جدوى، فرجحنا أنه قتل أثناء عبور خط النار .. بارك الله فيك يا أمير المؤمنين ..»

قال عمر وقد تبدت على وجهه علامات حب الاستطلاع: «لم أفهم بعد»

- «إخوتنا في الخارج أرسلوا لنا كمية من السلاح، وأخفوها في مقابر منطقة يقال لها «سور باهر» .. وسوف نبادر بالذهاب إلى هناك، واستحضارها للبدء في التنفيذ ..»

ابتسم عمر، وقال في فرح غامر: «أنتم تعملون .. وتفكرون .. وتتصرفون بحذر .. ثقوا بالله والنصر آتيكم ..»

ثم التفت إليّ فجأة وقال: «أأنت أحد الفدائيين؟»

طأطأت رأسي في خجل، ولم أستطع أن أنطق، أحاطني بساعده القوي. وضمني إلى جواره، ثم مال على رأسي وقبلها وتمتم باسمًا: «لو علموا ذلك في السجن لفصلوا رأسك عن جسدك ..»

هزني النبأ، لكأنما عثرت على كنز طال بحثي وتنقيبي عنه، عندما أحمل السلاح في يدي، أشعر أن هامتي تتطاول حتى تعانق السحاب، أشعر أنني حر، وعندما أموت فوق سلاحي ترف ابتسامة حلوة هانئة على ثغري .. القوة العادلة المبصرة ينبوع كرامة لا توصف، وعزاء للمناضلين الشرفاء .. وأخذت أتمتم ببضعة أبيات من الشعر كان يحلو لي ترديدها:

أنا إن سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح
واحمل سلاحي لا يرعك دمي يسيل مع السلاح
وانظر إلى شفتي أطبقتا على هوج الرياح
وانظر إلى عيني أغلقتا على نور الصباح
أنا لم أمت ... أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

وفجأة وجدنا أمامنا، لا أدري من أين جاءت. قالت راشيل: «كنت أجرى خلفكما وألهث ..»

اعتراني شيء من الضيق، فهتفت: «ماذا تريدين؟»

أشارت بأصبعها المخضوب نحو الخليفة قائلة: «أريده هو ..»

نظر عمر إلى وجهها الفاتن المغطى بالمساحيق والألوان، وشعرها الذهبي المتناثر. وأغمض عينيه حينما وقعتا على صدرها شبه المكشوف، ثم أشاح بوجهه كلية وهو يلحظ أن فستانها فوق الركبة. ويكشف عن ذراعيها ..

- «اذهبي أيتها الفاجرة .. ماذا تريدين؟»

قالت وهي تتراقص كطفلة مشاكسة: «لقد أنقذت حياتك»

- «أنا لم أجرم ..»

- «لا يهم .. كثيرون من الأبرياء يلقون حتفهم .. ألا تعرف؟»

- «ثم ماذا؟»

- « وتعهدت كتابيًا بضمانكما .. أي خطأ ترتكبانه ، أو أية شبهة تلحق بكما ، سأدفع الثمن .. ولهذا لابد أن أقضي معكما بعض الوقت حماية لكما ولنفسي أيضًا ..»

قال الخليفة مستغربًا : « نخرج من يد سجان إلى سجانة »

قالت : - « كان في الإمكان أن أترككما لكلاب الصيد ، لم يكن أحد ليلزمني بالشهادة والتعهد ، بل إن « إيلي » اعترضني بشدة .. لقد هجرته من أجلك ..»

التقط عمر عصا قصيرة ، وانهال على ذراعها في غيظ : « لا يصح أن تخاطبي رجالًا وأنت كالعارية ..»

قالت منفعلة : « وماذا في ذلك ؟ للمرأة الحق كل الحق في أن تبرز مفاتنها ..» ثم هزت كتفيها في ميوعة وقالت : « وخاصة إذا كانت جميلة ..»

وتحسست مكان الضربات ، ثم قالت في توله وهي تضع ذراعيها على كتفه : « ثم إني أحبك ..»

دفعها في عنف أوقعها على الأرض ، فنظرت إليه وهي ممددة بعينين يطل منهما الغضب والتمرد ، وهتفت : « أستطيع أن ألقنك درسًا لا تنساه أيها البدوي الـ ..»

وتجمع عدد من الناس بين مستغرب ومستطلع ، وصاح عمر : « أنا لا أعرف ماذا تريد هذه البلهاء مني ..»

هبت الفتاة واقفة ، وهي تنفض الغبار عن ثيابها ، ثم قاسته بنظراتها المتوعدة ، وانصرفت .. والناس يتساءلون ويعجبون

وأنا واقف أرقب المشهد المثير لا أعرف كيف أعالج الأمر ، ثم مد عمر خطاه الواسعة . وهو يجرني من ذراعي ، ومضينا في الطريق تاركين وراءنا اللغط وعلامات الاستفهام ..

- « لا أكاد أصدق ما تقع عليه عيناي »

قالها عمر وهو يغذُّ السير غاضبًا ، قلت : « جانب من عالمنا المائج بالأعاجيب ..»

- « أنا شيخ ناهز الخمسين ، وهي صغيرة السن ، وعندها الآلاف من بني جنسها .. وبيني وبينها فراسخ من تناقض الفكر والأخلاق .. تاريخ كامل يفصلنا ..»

قلت متعاطفًا : « السينما والروايات الغرامية صنعت عوامل كثيرة من الزيف والإغراء ..»

- « كيف ؟ »

- « لا أدري كيف أشرح الأمر .. بدعة جديدة عن حب الفتيات الصغيرات للكهول والشيوخ .. لوليتا .. وشعراء فتاة الخمس عشرة .. وأفلام باريس وهوليود .. هكذا .. بدع الحب .. والأزياء .. المسرحية تؤثر في جيل .. حائر متهور يلهث وراءه النسوة كي يرتدين ابتكاراته الغريبة .. ما أكثر بدع أوروبا ، وتجار الصهيونية !! »

ضرب عمر كفًا بكف : « لم أفهم شيئًا يذكر ..»

- « هي تحبك أيًا كان السبب »

- « تريد أن تتزوجني ! ؟ »

- «ليس الزواج بالضبط ..»
- «ماذا إذن ؟»
- «صداقة .. معاشرة .. علاقة من نوع ما بين رجل وامرأة تريده ..»

قال وهو يضع سبابته على فمه : «علاقة!! بين رجل وامرأة دون رباط شرعي ؟!»

- «تريد أن تستمتع بحق الزواج دون زواج ..»

أشاح عمر بوجهه وصاح : «أعوذ بالله .. لقد دفنا ذلك مع الجاهلية .. كانت الجاهلية أرحم ، كان العهر يستتر في البيوت ، لكنه اليوم في الشوارع ، ويحميه القانون .. إن عالمكم يسمي الأشياء بغير أسمائها .. لم لا تقول إنه زنا ودعارة ..»

همست خجلًا : «أجل ..»

- «ظهر الفساد في البحر والبحر بما كسبت أيدي الناس ..»

- «تلك مبادئهم يا أمير المؤمنين .. الفتاة في عصرنا تولم لصديقها في بيتها تحت سمع وبصر أمها وأبيها .. ولا حرج أن تذهب معه في رحلة أو نزهة .. لكن ، والحق يقال ، كثيرون من المسلمين لا يرتكبون هذه الآثام ..»

رمقني عمر بنظرة دهشة : «أنت تتكلم ببساطة مذهلة ، وهدوء غريب ، دون أن يثور الدم في عروقك .. لشد ما ينقصكم الاشتعال المقدس ..»

هززت رأسي قائلًا : «الإثم ينتصب في كل مكان .. لكل عالمه ، ولا تدخل في حرية الآخرين ..»

قال عمر : «يا للكارثة!! إنها حرية فسوق .. وهذه الصور البائسة تتعرض لحرياتنا نحن .. تقطع علينا الطريق ، وتنشر مباذلها لجر الضعفاء منا .. إنه هدم للفضائل ، وصرف للناس عن الحياة النظيفة السوية .. أهناك اعتداء على حرياتنا وحريات الآخرين أبشع من ذلك!»

وتوقف عمر عن السير ، وصاح بأعلى صوته ، وكأنه يخطب في مظاهرة : «فلتذهب حريتها إلى الجحيم ، إذا تعارضت مع الصالح العام ، وسممت حياة الناس ، ومكنت للإثم بين أبناء الأمة ..»

يا عجبًا ، إنني أسمع كلامًا ذا قيمة لأول مرة في هذه القضية ، كلامًا لم أتلقفه من فوق منبر ، أو أقرأه على صفحات كتاب ، إنه كلام منطقي مؤثر ، يتآلف مع روحي وعقلي ، انطلاقًا من قضية الحرية نفسها .. وانتزعني عمر من أفكاري قائلًا : «أنا أؤمن بالحرية ؛ لأني أؤمن بالله ، اعترضتني امرأة في المسجد ، وأنا أحاول تحديد المهور ، ورمتني بكلمات الشريعة القاطعة ، أعلنت على الملأ : أصابت امرأة وأخطأ عمر ..»

وأخذ عمر يضحك في مرارة ويقول : «عالمكم مجنون ، ويتهمني بالجنون .. في ظل رفاهية المادة تنحدرون إلى الحضيض .. ومقضى على بنائكم الزائف بالفناء .. علمكم الكافر

سيهدم في يوم من الأيام قصور الوهم والنعيم .. يا رجس العصور . ومباءة التاريخ ..»

اقتربنا من المنزل مرهقين مكدودين ، وآلام السياط تعاودني ، ورأسي يدور من قلة النوم ، وعنف الأحداث ، لكن «سيارة أجرة» سوداء تعترض طريقنا ، وتنزل منها امرأة مشتملة بعباءة سوداء ضافية ، وعلى وجهها شال شفاف أسود ، ووقفت قبالتنا ، فصحت مبهورًا : «راشيل ..»

الفصل ٨

قستها بنظراتي الحائرة ، وحاولت جاهدًا أن أفهم ماذا وراءها ، أهناك سر تطويه عنا ، أم أن لها هدفًا بعينه تريد تحقيقه ؟ هل مجرد ميلها إلى الشيخ ، ورغبتها في العبث ، والاستجابة لخيالات المراهقة التي غزتها الروايات والسينما والمجلات الخليعة ؛ هل هذا هو كل شيء ؟ أم تراها جاسوسة ماهرة تحاول أن تهتك سر الغموض الذي تظنه وراء الشيخ ؟

إنها أمور محيرة ، فلقاؤنا معها في البداية جاء عن طريق الصدفة البحتة ، ولو كان عمر يخفي سرًّا خطيرًا لمضى في طريقه دون أن يتعرض لها أو يثير تلك الضجة الكبرى التي استوجبت لقاءاتنا مع الشرطة . ومعاناتنا للمشاكل الخطرة ..

ودهشت عندما سمعتها تقول : «لا تشك في أمري ، لقد ارتديت زيًا يليق ، أعرف أنك ممن يرفضون تبرج النساء .. أيها الشيخ أنت لا تعرف مدى ما أثرته فيّ من فضول .. حسنًا لنكن أصدقاء .. لقد ضربتني مرتين .. هذا أمر غريب .. امرأة تريد أن تناقش وتفهم ، هل في ذلك عيب ؟»

هتف مستغربًا : «وكيف تأمنين على نفسك مع رجل قد تراوده أمنيات طائشة ؟»

– « إني أثق فيك »

– « وأنا أرفض هذه الصداقة المشبوهة »

– « أدينك يأمرك بذلك ؟ »

– « ديني يأمرني بألا ألقي بنفسي إلى التهلكة، وألا أقترب من الشبهات، وألا أجالس نافخ الكير »

قالت باسمة مستفسرة : « نافخ الكير ؟! »

– « أجل .. ألا تعرفين الحداد ؟ »

– « إن هدفي هو المعرفة .. »

ضحك عمر : « ألدى المجنون معرفة ؟! هكذا قال بنو جلدتك »

– « أنت زعمت أنك عمر بن الخطاب »

– « وماذا في ذلك ؟ »

– « ما عهدنا شيئًا كهذا .. العظام تبلى، الإناء تحطم إلى شظايا، وانسكب المحتوى .. ومضت أربعة عشر قرنًا من الزمان .. فكيف تعود الحياة ؟! »

– «كما حدث لأصحاب الكهف، وجرى «لعازر» وآدم مم خلق ؟ »

– « آدم ... »

– « إن الله على كل شيء قدير .. كل شيء ... أتفهمين ؟ »

– « إنها إحدى بديهيات العقائد .. لكن الناس لا يصدقون في إيمانهم بها .. أنا يهودية، لكني لست متدينة .. »

قال رافعًا حاجبيه مستغربًا : « ماذا تعنين ؟! »

– « لا أشعر بقيد واحد من قيود الدين، كل ما يهمني في « التوراة » أنها تجاوبت مع آمالنا السياسية في الوطن والخلاص .. وما عدا ذلك فلا أؤمن بشيء .. »

حملقت « راشيل » مذهولة، عندما أكد لها عمر أن « التوراة » حق، وأنه يؤمن بها، وأن « الإنجيل » حق، وأنه يؤمن به، وأنه لا إسلام ولا إيمان بدون الإقرار بالكتب المقدسة كلها، والرسل والأنبياء جميعًا، لا نفرق بين أحد من رسله سبحانه، واستطرد في شرحه لها كيف أن الدين عند الله الإسلام، وأن الإسلام هو رسالة جميع المرسلين منذ آدم حتى محمد عليهما الصلاة والسلام .. لكنه استدرك قائلًا : «لكن أين التوراة الحقيقية ؟ لقد أضاعها أحباركم ثم مسخوا كلمات الله، واخترعوا أقوالًا ما أنزلها الله ..» «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون» ولم ينج الإنجيل كذلك من العبث وأهواء المنحرفين ..»

كانت تستمع إليه في يقظة، وتنهل كلماته في شوق، وكان انفعاله ويقينه الكبير يضفيان على حديثه قوة وتأثيرًا، وبدا الارتياح على وجهها وهي تقول : « الأحاديث تطول، وأنا أبحث عن النور، أو تسمح لي بمرافقتك بعض الوقت ؟ »

قل عمر ملوحًا بسبابته : « في حدود »

- « جئت لأناقش وأتعلم ..»

- « وأنا لا أوصد باب العلم والهداية في وجه أحد ..»

وهتفت في صدق : « وأعلم يا أمير المؤمنين أنني لا أنتمي لشيء .. وعندما أشعر برضى فكري وروحي .. فلسوف أنتمي على الفور ..»

- « الصراحة تعجبني ، ما كرهت في أسلافك إلا الكذب .. والنفاق والغدر ..»

- « فلنترك للزمن الحكم ..»

زمجر في غضب : « الحكم لله .. ما هذه العبارات السخيفة التي تتحدثون بها ..»

- « عفوًا .. ليس من السهل الإقلاع عن عادة متأصلة والآن ماذا قلت ؟ »

- « موافق ..»

الحق أنني انزعجت أيما انزعاج لإشراك هذه الفتاة الطائشة في حياتنا ، أخذت أشرح للخليفة خطورة ذلك ، وذكرته بعبثها وسرعة تقلباتها ، إن طرافة التجربة قد بهرتها ، والإثارة الكامنة في الموقف قد دفعتها دفعًا للخوض فيما ليس لها ، هي تريد الاكتشاف والعبث والتسلية .. لكنه أزاحني عن أذنه في رفق وقال : « أنا لا أخاف إلا الله ، ما جئت لأكتم كلماتي ، أو أقذف بها في الظلام ، ليكن لها ما تريد .. عمر لا يرهب أو يخجل من إعلان كلمة الحق ، ولو حاصرتني طائراتهم من كل مكان ،

وعمر لن تستهويه حسناء يهودية ، فقد فشل أسلافها في غابر الأيام ، وسأسقيها العلقم .. الحق في فم الكثيرين مر المذاق .. قد تسخر مني وترميني بالبله والسذاجة .. لكني لن أتراجع ، قد تظن هذه الفتاة أنها تخدعني .. قد تنصرف عني في أي وقت ، ولا تؤمن بأية كلمة مما أقول ، كل هذا لن يجعل اليأس يتسرب إلى نفسي ، ولن يمنعني من إطلاق كلمتي .. وليكن ما يكون .. الكلمة الطيبة كالغيث ، إن أصابت أرضًا طيبة أنبتت الخير لترعرع ، وإن أصابت أرضًا سبخة رطبت الأعماق ، وسارت إلى حيث يريد الله ، أو تصاعدت أنفاسًا ندية إلى الأفق .. لكن الغيث ينزل دائمًا .. ومن الخصب تتولد الحياة .. والكلمات الخالدة تتردد في الآفاق أبد الآبدين .. وقد آن أوان الصلاة .. فاذهبي عنا الآن ..»

هكذا تكلم عمر ..

عادت « راشيل » إلى بيتها في القدس الجديدة متوترة الأعصاب ، قلقة الفكر ، محتقنة الوجه ، كانت تستعيد كل ما قاله عمر وتفكر فيه ، وتقارن بين حصيلتها القديمة . وبين ما يقوله هذا الرجل . إن ما يقوله في الحقيقة أقرب إلى فطرتها ، وأشد تواؤمًا مع نفسها .. واشتد بها الضيق حينما وجدت « إيلي » في انتظارها : « ما الذي أتى بك الآن ؟ »

– «كلمات لم أسمعها منك منذ تعارفنا ..»

قالت ممتعضة : « هناك أوقات يحب المرأ أن يخلو فيها إلى نفسه »

شملها بنظرة مستغرب وقال : «ما هذا الزي الذي تلبسين؟! أهو بدعة من بدع «كريستيان ديور » ؟

قالت ساخرة : «بل هو ستر للبدع الرخيصة ..»

– « وماذا جرى لك يا راشيل ؟! هل أنت متعبة ؟!

ألقت بنفسها فوق مقعد مريح ، وأسندت ظهرها إليه ، ووضعت ذراعيها على جانبيه ، وقالت وهي تحملق في السقف : «كان حلو النظرة ، واثق الكلمات ، محلقًا بأفكاره كالنسر الجارح .. تذيبني حركاته وإشاراته ، بسيطًا في ذكاء ، متواضعًا في رفعة ، خاليًا من عقد العصر ونقائصه .. هممت أكثر من مرة أن ألقي بنفسي على صدره العريض ، وأتنسم عبيره ، وتمنيت أن تعتصرني ذراعاه .. وأن أبكي بحرارة على كتفه .. لكن قوة خفية كانت تحجزني . وتشل تحركي ..»

دق « إيلي » الأرض بحذائه ، وصاح في غيظ : «ما هذا الهذيان ؟! »

– « إني أعي ما أقول ..»

– «كانت تصرفاتك دائمًا تتسم بالغرابة والشذوذ »

– «وأنت دكتاتوري النزعة ، ترمي من لا يلتزم برأيك بالخيانة والغدر والجهل .. أنت رجل مخابرات بالسليقة »

قال في اشتمئزاز : « إنني أحتقر هذه الاتجاهات الغيبية السخيفة »

– « أنت تدوس أحلامي بحماقتك ، وتتدخل فيما لا يعنيك »

– «كيف ؟ »

زمجرت قائلة : «لست جارية لك ، إن لي ذاتي وأشواقي الخاصة ، تريد أن تمتلكني وتحجر علي أفكاري .. هذا ليس حبًا . ركع أمامها ، وسالت ضراعاته الذليلة : «يا حبيبتي ..» بالله عليك لا تحطمي حلمنا الجميل من أجل وهم طارئ ، أو نزوة عابرة .. تذكري الأيام الحلوة ، ورائحة الشواء والكئوس في البيارات الهادئة الخضراء .. وتذكري لقاءنا الخالد عند الهيكل يوم احتللنا القدس وطردنا العرب ، وتعاهدنا على الزواج .. ورقصنا وغنينا في ساحة الأقصى وشربنا حتى ثملنا ..»

دفعته مستنكرة وقالت : « أصبحت أشمئز من هذه الذكرى .. انتهى الأمر . لم أعد أحبك ، هذا شيء خارج عن إرادتي ، ففيم الضراعة ؟ أم تريد أن تجرني من شعري إلى الجحيم كما تفعل بالعربيات المتهمات ؟ »

وشردت ثانية ، وأخذت تقول : «كان للنصر مذاق حلو آنذاك ، لكنه لم يطل ، كل شيء ينتهي بسرعة .. لم أحظ بالسعادة الدائمة بعد .. ما زلت أعاني القلق والأرق والحيرة .. طبول النصر تصدع رأسي .. أكره الغابة والوحوش .. أكره الغابة

والوحوش » آه .. كنت أبحث دائمًا عن شيء لا أعرفه .. في أعماقي تيه خالد ..»

قال في شراسة وتحد ، وقد نهض : «لكني أعرف ، وأنت أيضًا تعرفين .. تريدين أن تغرقي نفسك في بحر الشهوات الجامحة .. تريدين ذلك الرجل بأي ثمن .. ولسوف تملينه بعد ليلة واحدة ..»

أدارت له ظهرها ، ثم ضحكت في توتر ، وسرعان ما استدارت نحوه ثانية وهي تقول : «ليته يقبلني خادمة عنده »

– « هذه الترهات الرومانسية .. إنني أكرهها .. أكرهها ..»

– « أيها التعس أنت لا تعلم ما يعتمل في داخلي »

قهقه ساخرًا : « رغبة مسعورة ، في جسد محموم ..»

ابتلع ريقه وقال في تحد ، وقد تصبب عرقًا : «حسنا .. لسوف أقضي على هذه الخرافة بطلقة من مسدسي »

– « أتقتله ؟ »

– « أجل .. لا أستطيع الوقوف أمام هذا الانحدار والحماقة طويلًا »

قهقهت في توتر وقالت : «لن تفعلها »

– «لدي السلطة الكاملة كرجل مخابرات ، ولن تعييني الحيل »

قالت بصوت ناعم متكلف : «وأنا مكلفة من قبل رئيسك بالمخابرات ، كي أكتشف الرجل وابحث عن هويته وهدفه ..»

ساد الشحوب وجهه وقال : «منذ متى ؟ »

– « اليوم في الصباح »

ثم قالت بعد فترة صمت : «وعند اللزوم سأخطر الرئاسة بأنك تتعرض لمهمتي المقدسة ..»

ابتسم في حيرة : « إذن فأنت في مهمة رسمية ..»

– « ربما ..»

بدا الغضب على وجهه الشاحب ، كان في داخله ثورة عارمة ، بدت في رعشة يديه ، وتأرجح عينيه ، لكنه كظم غضبه وتناول صحيفة وكتابًا كانا معه ، وسلسلة ذهبية ، ومذياعًا صغيرًا .. ثم انصرف .



الفصل ٩

– « ما هذه الأوراق ؟ »

– « صحف الصباح يا أمير المؤمنين .. وهي مليئة بالأنباء المحلية والعالمية »

دقق الخليفة النظر فيها ، ومر سريعًا بصورها وأعمدتها ، فقلت : « في هذه الصفحات أخبار الدنيا شرقًا وغربًا ، لا تجد حادثًا ذا بال ، أو مشكلة من المشاكل الدولية ، أو اكتشافًا علميًا ، أو احتكاكًا عسكريًا بين دولة وأخرى ، إلا وتجد عنه التفاصيل الكاملة في نفس اليوم .. »

قال الخليفة : « عجيبة!!! في نفس اليوم ؟! »

– « أجل .. »

– « كيف ؟ »

– « هناك مؤسسات خاصة للأنباء ، يجمعها مراسلوها ويبعثون بها باللاسلكي أو الراديو وآلات التيكرز في لحظات .. وفي الصحف أبواب للسياسة .. والفنون .. والأدب .. والعلوم .. وإعلانات عن السلع .. حتى الجرائم لها متخصصون يكتبون عنها .. »

حملق قائلًا : « تجلس هادئًا في بيتك ، وتقرأ كل أخبار الدنيا ، بينما تتناول فنجالًا من القهوة ! أي سحر حملك على

جناحيه إلى هذه الآفاق الشاسعة .. إن مثل هذا الاختراع يذيب الحواجز والحدود ، ويسخر من المسافات .. ما كان هذا ليخطر لنا على بال .. قدرة الله وسعت كل شيء ، وأنتم لا تدركون جلال هذه النعم ، لو بلغنا بعض هذا الشأن ، لخرت الأمم ساجدة لله شكرًا ، ولكنكم برغم هذه الآلاء ، تلغون في الإثم والفجور .. تستطيع أن تمتطي هذه الوسائل إلى الخير والفضيلة ، وتستطيع أن تجعل منها مركبًا للنساء .. »

وابتسم في رضى وهو يقول : « صاروخكم أو بعض طائراتكم تقطع المسافة بين مكة وبيت المقدس في وقت قصير .. وتتساءلون أكان إسراء الرسول بالروح أم بالجسد .. لو كنت مكانكم لما أصابني أدنى شك في إسراء الرسول بروحه وجسده .. »

أمسكت بالصحيفة ، وأخذت أقرأ عناوينها بصوت مرتفع « الدول الكبرى لم تتوصل إلى حل لمشكلة الشرق الأوسط » ، « أوثانت يصرح بأن على جميع دول المنطقة الالتزام بقرار مجلس الأمن » ، « اشتباك بين الفدائيين ودورية إسرائيلية في الجليل الأعلى وغور الأردن » ، « تبادل إطلاق النار في خط المواجهة بقناة السويس » ، انفجار كبير في القدس ، أحد المتهمين العرب يزعم أنه عمر بن الخطاب .. » « ودق قلبي » ثم صورة للخليفة وأنا إلى جواره!! أصبح الأمر مشاعًا ، وستصبح

القصة على كل لسان، قال الخليفة: «أهذه صورتي، إن راسمها بارع ..»

– «هذه الصورة من صنع آلة صغيرة»

– «آلة صماء!!»

– «أجل، وتعمل وفق نظام دقيق»

– «ألا يصيبها الخلل»

– «بالطبع ..»

كنت أناقش الخليفة، وأنا نهب للفكر والقلق، سمعته يقول: «ماذا كتبوا عني ؟»

همست في خجل: «نفس السخافات التي رددتها المخابرات الإسرائيلية»

هز رأسه قائلًا: «يرمونني بالجنون ..»

– (فليقولوا ما شاءوا، فستغشي الحقيقة أعينهم»

لم يضايقه الأمر كثيرًا، أما أنا فقد أوجست خيفة، لسوف يتقاطر الناس من كل مكان ليتسلوا بالأعجوبة، وليشهدوا «المعجزة»، وهذا سيحاصرنا بالفضول من كل مكان، ويعوق الخليفة عن القيام بواجبه.

وهتف الخليفة: «لو بلغنا من العلم الدنيوي ما بلغتم، لما استغرقت هداية العالم منا أكثر من بضعة شهور، ولأخذنا بيد الناس إلى الجادة .. ويبدو أن زعماء العالم اليوم لا يستغلون ما وهبهم الله من قدرات إلا لجركم إلى الانحراف والخنوع

والغرور .. القوة في أيديكم وسيلة لقهر المساكين، والرفاهية تخمة وأدواء، والحرية دعارة، والعلم تحكيم للأنانية على مستوى الفرد والدولة ..»

ثم صاح: «ألم يقم في عصركم رجل واحد يأخذ بيد العلم إلى الإيمان ؟»

تنهدت في حسرة: «لم يخفت ذلك الصوت على طول الزمان»

– «والنتيجة ..»

– «لكأنما أصبنا بالصمم ..»

– «وكيف تشق الكلمات طريقها عبر الضجيج والهياج وسعار الشهوات ؟ السياط التي ترهقون بها ظهور الأبرياء في السجون، لو استعملتموها في جلد الدعارات والزيغ، لتطهرت مجتمعاتكم من الأوبئة، ولسادت الفضيلة كل الأنحاء ..»

كز عمر على أسنانه، وساد وجهه شحوب ظاهر، وتندى جبينه بالعرق، وتقبضت عضلات وجهه، ثم انحنى قليلًا إلى الأمام، واضعًا يده على بطنه جهة اليمين قليلًا، وتمتم: «لم أعد قادرًا على احتمال تلك الآلام ..»

وثبت من مكاني مضطربًا، وقلت: «ماذا بك يا أمير المؤمنين ؟»

– «لكأني تجرعت سمًا .. آلام بشعة تعتصر أحشائي»

– «لابد من زيارة طبيب ..»

قال في كلمات متقطعة : «كنا على عهد الرسول نشرب منقوعًا لبعض الأعشاب بعد غليها .. وسرعان ما كانت تختفي الآلام ..»

وذكر عمر اسمًا غريبًا لبعض الأعشاب لم أسمع به من قبل ، وفكرت في تصفح قاموس اللغة الذي أمتلكه ، لكني حاولت إقناع الخليفة بأن زيارة الطبيب لابد منها ، وهي لن تستغرق سوى بضع دقائق ، وبالطبع أعطيته فكرة عن الطب وتقدمه في عصرنا ، ومجالات الجراحة والعقاقير والتخصصات الكثيرة ، والسنوات الطويلة التي يقضيها الطبيب لكي ينال إجازته ..

وكان واضحًا أن الخليفة لديه رغبة دائمة في التعرف على كل جديد ، ومحاولة اكتشاف كنه كل شيء يقابله ، وكثيرًا ما كان يقول لي أنه لكي تصدر حكمًا في أية قضية من القضايا يجب أولًا أن تلم بكل أطرافها ، وتتصورها وكأنك تعايشها ..

وعندما دلفنا إلى إحدى المستشفيات العربية بالقدس القديمة مال عمر نحوي قائلًا : « أبينهم صهيونيون ؟ »

– « لا .. »

– « وهل تثق في هؤلاء الأطباء »

– « كل الثقة ، ولي بينهم أصدقاء »

جلس الخليفة على طاولة الكشف النظيفة البيضاء ، وأخذت عيناه تدوران في أرجاء الغرفة المكيفة الهواء ، ويرقب الأضواء المشعة من السقف حيث لمبات النيون الصافية ، وينظر إلى

الصور الملونة التي تبرز أحشاء الإنسان وأجهزة جسمه المختلفة ، واتسعت حدقتاه دهشة وهو يرى هيكلًا عظيمًا كاملًا معلقًا في ركن من أركان الحجرة ، وهمس : « أيمكن أن يحدث ذلك ؟! »

– « إنه هيكل حقيقي .. »

– « من صاحبه .. »

– « عبد من عبيد الله »

تمتم في ألم عميق : « ذهب كل شيء .. ذاب الجلد واللحم .. وتبخرت الأحشاء .. وماتت الرغبة .. لا جموح ولا تمرد .. لم يبق سوى عظام نخرة لا حراك بها » .

وأخذ يستغفر الله ويحوقل ، ثم استطرد : « كأنه قطع من خشب .. تعرت من كل كبرياء »

وتمتم في أسى : « تزينون قصوركم بعظام الموتى »

– « حاشا لله ، إنه شيء للتعلم والدراسة .. »

ودخلت فتاة ممشوقة القوام ، رائقة البشرة ، حلوة السمات ، تغطي رأسها بغطاء أبيض ، وترتدي زيًا محتشمًا سابغًا ، لا يبدي سوى جزء من عنقها ويديها والجزء الأسفل من ساقيها ، وعلى وجهها ابتسامة وادعة يوشيها حزن غامض ، واقتربت من عمر ، وهي تمد يدها بمقياس الحرارة ، فامتنع محتجًا وهو يقول : « أهذا هو الطبيب ؟ »

– « بل الممرضة .. »

– « ماذا تريد مني ؟ »

قالت باسمة : « لابد من تسجيل الحرارة والنبض وضغط الدم »

وتدخلت قائلاً : « هذا هو الأسلوب المتبع يا أمير المؤمنين لا مجال للاعتراض ..»

– « لا أستطيع أن أسلّم بكل ما تعملونه ، يجب أن أفهم ، أتريدون تخفيف آلامي مقابل امتهان خلقي وكرامتي ؟ »

وكان لابد أن أشرح له ما غمض ، وأقنعه بما يجري ، وسرعان ما فتح فمه ، ثم أطبق بشفتيه على مقياس الحرارة ، وبعد أن تم أخذ الحرارة قال : «لماذا لا يقوم رجل بهذه المهمة ، أليس من الأوفق أن تخصص هذه الفتاة للمرضى من النساء ..»

قلت في دهشة : « ألا يجوز أن تقوم النساء بعمل كهذا ؟ »

– « لا أعني ذلك .. بعض نسائنا اشتركن في المعارك ، وحملن السيوف ، وضمدن الجراح .. لكن نساءنا كن غير نسائكم ، أنتم تسيئون استخدام الرخص ، وتنفرون من الفروض ..»

جاء الطبيب بعد وقت قصير صامتًا ، وإن ابتسم بحكم العادة ، فقلت لأبدد الوحشة والوجوم : « طبيب من مصر »

التفت عمر إليه قائلاً : « أو تذكرون عمرو بن العاص ؟ »

ابتسم الطبيب ، ثم شرد بنظراته إلى بعيد .

– « كانت أيامًا رائدة قل أن يجود بمثلها الزمان »

قال الخليفة في عتاب : « وكانت له هنات ، لم يكن من العدل أن تمر دون حساب عسير »

أجاب الطبيب بابتسامة مقتضبة ، ثم أخذ في الفحص الطبي ، آنًا يضع المسماع على صدره وقلبه ، وآنًا آخر يضغط بيده على أماكن مختلفة من البطن ، ثم أخذ يوجه بعض الأسئلة المتعلقة بالطعام والشراب والهضم ، وحركة الجهاز البولي ، ووقت ابتداء الأعراض وصفاتها .. أسئلة دقيقة شاملة لكل شيء ..

وتمتم عمر : « هل عرفت الداء »

– « أجل ، لكن لابد من إجراء فحوص مختبرية تتعلق بالبول والدم والبراز ، وقد تحتاج لصورة بالأشعة السينية ..»

ابتسم عمر برغم الآلام وقال : « لا أعرف معنى لما تقول ، لكن .. أنتم متسرعون في كل شيء إلا تخفيف آلام البشر ..»

وتوقف الطبيب فجأة عن الفحص ، وأطال النظر إلى وجه الخليفة وهتف : «يخيل إلي أني رأيت صورتك اليوم في الصحف » .

هز عمر رأسه ضاحكًا وقال : « أجل .. أنا مجنون الأمس .. يا عالم الفضائح »

قال الطبيب : « إنها فرية رموك بها ، الصحف الإسرائيلية خاصة مولعة بالأكاذيب والقصص المثيرة »

دهش الطبيب حينما سمع مريضه يقول : « وما وجه الغرابة في أن أكون عمر ؟ »

شمله الطبيب بنظرات شك : « إنه شيء غير مألوف »

– « غير مألوف ، لكنه جائز .. ألم يقرأ اليهود شيئًا عن قتيل بني إسرائيل والبقرة ؟ وعزير ؟ الإيمان بالله يتضمن بداهة الإيمان بقدرته ، وأنت عالم ..»

همس الطبيب في حيرة : «كلام منطقي ، لكن يتعذر عليّ قبوله »

– « منطقي .. ومقنع .. ثم ترفضه ؟! »

– « تلك هي الحقيقة »

– « إيمان غريب ! »

– «يقيني الوحيد أيها الشيخ هو أنك في كامل قواك العقلية ..»

قال الخليفة بهدوء وثقة : « وكيف أقمت بناء هذا اليقين ؟ »

– « المشاهدة والتأمل ومقاييس العلم والمنطق ..»

– « أي ولدي .. أنت تمزق حديثي .. وتنتقي منه ما تشاء .. تلك خطيئة التجزئة .. الفهم الموحد أين ؟ لم لا تقبلني أو ترفضني ككل ..»

هكذا تكلم عمر ..

وقال الطبيب وقد بدا الارتياح على وجهه : «لنخفف آلامك أولًا .. أعتقد أنك مصاب بالتهاب بالزائدة الدودية ، وستحتاج

لجراحة عاجلة .. هذا المرض في كبار السن ، يحتاج إلى تدخل سريع ..»

دق قلبي ، وفاجأني اضطراب مباغت ، ماذا لو مات الخليفة أثناء العملية ؟ الحدث الكبير ينتهي هكذا بسرعة ، وتجهض آمالي العريضة ، أي إزعاج أعانيه!! قلت : «يا صديقي الطبيب ، أليس هناك بديل للجراحة ؟ »

– « لا أضمن ...»

تدخل عمر قائلًا : « لا تزعجني الآلام كثيرًا ، وما دام الأمر ضروريًا ، فإن قضاء الله لا فكاك منه .. إنني أفر من قدر الله إلى قدر الله ..»

همس الطبيب : «لن تشعر بأدنى ألم ، فستستسلم لنوم هادىء عميق .



الفصل ١٠

أثار وجود الخليفة بالمستشفى ضجة كبرى بين العاملين فيها، وقد علق الدكتور «وهيب عبد الله» على ذلك قائلًا: «القصة طريفة لا شك في ذلك، لكنكم أيها السادة ملتاثو العقول، تستهويكم الخرافات، أنتم تشاركون في صنع وهم سخيف»، لكن الجراح الذي استقبله وهو الدكتور محمود عناني قال: «لا أستطيع أن أقبل القصة أو أرفضها، إنها تحتاج لدراسة وإمعان فكر، ولابد من إجراء بعض الاختبارات والمشاهدات للوصول إلى الحقيقة بطريقة قاطعة ..»

غير أن الدكتور عبد الوهاب السعداوي، وهو طبيب باطني عرف بالتدين قال في ثقة: «لم لا يكون ما حدث حقيقة؟! إنني أعرفك يا «وهيب عبد الله».. أنت مادي جدلي، قد حطمت نظريات ماركس وتلامذته كل ما لديك من روحانيات طمست الجانب المشرق من عالمك الذاتي»

وجرى عبد الوهاب السعداوي إلى غرفة العمليات كالمجذوب، وعدد من زملائه يلاحقه، وكذلك بعض الممرضين والممرضات، والفراشين والفراشات، وما إن بلغ السرير الذي ينام عليه الخليفة حتى انكب على قدميه يقبلهما، ويذرف فوقهما الدموع، ويقول في انفعال حاد: «يا حبيب رسول الله،

كنت دائمًا أقول: نحن في حاجة إلى رجل مثلك.. إلى الإيمان الممتزج بالنصر.. القوة التي تخالطها الرحمة.. العقاب المضمخ بالعدل.. يا أمل المساكين في عالم الضياع والعذاب ..»

استقام عمر في سريره، ومسح على جبينه وشعره في لطف وقال: «أنت الطبيب الوحيد الذي آمن بوجودي هنا، حسنًا. إنه شيء يسعد قلبي، غير أني لا أرى مبررًا لتقبيل قدمي، إنه ضرب من العبودية لا أحبه.. تعال هنا.. جفف دموعك، وارفع رأسك عاليًا ..»

ثم ضمه عمر إلى صدره قائلًا: «من أنت؟ كيف وصلت؟»

– «أنا من تعرف، عبد من عبيد الله شقي بالحيرة طويلًا.. كان الطريق وعرًا، متوهجًا بالنار والعذاب والقلق.. اتخذت العقل وحده رفيقي.. شعرت أنني فقدت جانبًا رائعًا لا يدركه إلا المخلصون الباحثون عن نور الحقيقة.. الخرائط في يدي، وأنا أسير.. وأسير. حتى سقطت إعياءً، وعيناي معلقتان بالسماء.. جرعة ماء!! أين؟ أبحث عن دليل.. لا أجد.. سمعته في البرية يقول: «من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا، ونحشره يوم القيامة أعمى ..» وعرفت الطريق يا ابن الخطاب.. البصر والبصيرة.. الروح والمادة.. العقل والعاطفة.. الوجود الحق بكماله.. ومن يومها وأنا أنعم بالمذاق الحلو الشهي.. أصبح عملي عبادة.. وصلاتي محرابًا إلى الله.. ونومي عفة..

ويقظتي منهاجًا وأنا أبحث عنك من قديم، وأعرف عنك الكثير ..»

قال عمر وقد شفت مشاعره: «هل عرفت شيئًا عن قصوري وعصياني وندمي؟»

– «يا باعث الأفراح في دنيا البائسين ..»

– «أنا بشر غير معصوم. وقد رباني حبيبي .. وعاتبني ونهاني .. لم أولد كاملًا .. كانت حياتي سعيًا متواصلًا للكمال الذي لم أبلغه .. لكني كنت سعيدًا وأنا ألهث في الطريق بغية الوصول ..»

وضجت حجرة العمليات بالشهيق والبكاء، كانت غالبيتهم من العمال والعاملات والمضمدين والمضمدات، وارتموا فوق الخليفة ينتحبون، ويلثمون جسده وثيابه، حتى كاد يختفي تحت أيديهم ورءوسهم، وصاح الدكتور وهيب عبد الله في حدة: «أيها الحمقى، لقد أتلفتم التعقيم، وأفسدتم نظام حجرة العمليات .. هل نحن في مستشفى مجانين؟ إذا لم تنصرفوا على الفور فسوف أشدد عليكم الجزاء، وأستدعي الشرطة لإخراجكم بالقوة ..»

ثم جذب الممرضة رجاء. تلك التي استقبلت عمر في البناية، وانتهرها قائلة: «ما هذا الذي تفعلين؟ ولم البكاء؟!»

رماه عمر بنظرة طويلة، وقال موجهًا الحديث لمن حوله: «أصلحوا ما أفسدتموه، وعودوا إلى أعمالكم .. أخوكم يقول

الحق، ويدعوكم للنظافة والنظام والتعقل، تفرقوا يغفر الله لي ولكم ..»

وكان الدكتور محمود يقف شاحب الوجه، يتفصد جبينه عرقًا، وقلبه يدق في عنف، وإلى جانبه وقفت «رجاء» محتقنة العينين، مرتجفة الجسد، بينما اكفهر وجه «وهيب» وقدم نحوها قائلًا: – «ما بك؟»

قالت: – «لا أعرف، يبدو أنني أحببت هذا الرجل .. سمعته يهمس وسط الضجيج: أسرجو شعلة الحق بزيت المعرفة، ورطبوا القلب بعذب اليقين .. واطفئوا وهج الضلال بأنفاس الندم والتوبة .. وابدأوا كما ولدتكم أمهاتكم أحرارًا نظفاء .. واشدوا باللحن العظيم، لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

ثم أخذت تنتحب، وتكتم انفعالها دون جدوى، وتمتمت: «لا أستطيع أن أسيطر على نفسي .. لقد امتلكتني كلماته .. لكم أحب هذه الكلمات ..»

وقال عمر بصوت مبحوح يغمره الانفعال: «يا أبنائي .. آن أن يستأصل الداء، كي تجف الآلام ..»

وفي دقائق كان كل شيء هادئًا، لا تكاد تسمع في غرفة العمليات إلا أزيز الغلايات، ورنين الآلات المعدنية، والعاملون يتحركون في صمت ووقار جاد، والقلوب تخفق بلحن حان حبيب .. وبعد أن حُقن الخليفة بالعقار المحدد، تمدد هادئًا، وكان قد أوصى بشدة، أن تُستر عورته أثناء النوم الصناعي،

وقبيل الإفاقة، بعد انتهاء العملية، كان يتكلم دون وعي ويقول: «بسم الله الرحمن الرحيم.. من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى النعمان بن مقرّن.. سلام عليك.. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنه قد بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة، قد جمعوا لك بمدينة «نهاوند»، فإذا أتاك كتابي هذا، فسر بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله، بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعرًا فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة، فإن رجلًا من المسلمين، أحب إليّ من مائة ألف دينار، فسر في وجهك حتى تأتي «ماه». فإني قد كتبت إلى أهل «الكوفة» أن يوافوك بها، فإذا اجتمع إليك جنودك. فسر إلى «الفيرزان» ومن جمع معه من الأعاجم، من أهل فارسٍ وغيرهم، والسلام عليك..»

آه.. إنها مسئولتي الكبرى، أريد أن يكتب القواد إليّ بكل شيء وأن يصفوا كل شيء عن أرض المعركة وطبيعتها، أريد أن أكون كأني أعيش بينهم.. آه.. إم.. آه.. يا ويحك يا عمر، ورثت عبئًا ضخمًا، ماذا تقول لربك يوم تلقاه. آه. «يا سعد.. لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في دين الله سواء، يتفاضلون

بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه، وعليك بالصبر..»

قال طبيب التخدير معلقًا: «لقد أوشك أن يفيق»

وقال عبد الوهاب السعداوي الذي يخفي جزء كبيرًا من وجهه وراء القناع الأبيض، فلا يظهر إلا عيناه اللتان تدمعان: «هذه رسائل وردت في كتب التاريخ بنصها.. رسالة للنعمان، وأخرى لسعد بن ابي وقاص.. انظروا كان يضع الخطة العسكرية لمن يحاربون في فارس وهو مقيم بالمدينة.. احذروا الجبل.. انحرفوا صوب الشرق. واستعدوا لعبور النهر في وقت كذا.. كان يعيش المعركة بعقله وقلبه.. آه ليته يتكلم ساعات وساعات.. أما سمعتم، كيف يخاطب رجاله، وكيف ينصح خال الرسول؟!

كان يومًا مشهودًا.. كل من بالمستشفى تسابقوا إلى حجرة المريض، وسرى النبأ في كل مكان، وضرب الناس عرض الحائط بكلام الصحف، وقال قائلهم: «الصحف تكذب دائمًا، إسرائيل تريد أن تخفق أي نور يسطع في عالم المسلمين.»

وزحف ألوف من الناس صوب المستشفى العربي، وكان لابد من حماية النظام بوضع قوات كافية من الشرطة ورجال الأمن هناك، حتى لا تُستغل الظروف، أو تستشرى الفوضى

ويندس المخربون، أو تندلع المظاهرات المعادية للاحتلال، واستطاع كثير من المقتدرين أن يلقوا على «المريض» نظرة خاطفة، عن طريق دفع المال أو الوساطات، لقد تحولت الشوارع والميادين القريبة من المستشفى إلى خلايا نحل واختلط الليل بالنهار، فالحركة دائبة، والضجة لا تنقطع، وقد اضطرت الشرطة الإسرائيلية في بعض الأحيان، وخاصة بالقرب من الأبواب الرئيسية للمستشفى، إلى إطلاق النار للتخويف، في محاولة لتفريق التجمعات المخيفة التي تنذر بالخطر ..

واستغل محررو الصحف الفرصة، واتصلوا ببعض العاملين بالمستشفى وأخذوا عنهم بعض الأحاديث الصحفية، بعضها بأجر، لكن أغلبها كان تطوعًا، فلم يقبل أصحابها أية مكافأة.

وفي اليوم التالي ظهرت الصحف، وبها تحقيقات كثيرة عن الموضوع الهام، وأدلى رجال الدين، وعلماء النفس، ورجال الأمن بآرائهم وقال أحد علماء الدين الرسميين من المسلمين: «لم يرد نص بهذا الخصوص في أحاديث رسول الله ﷺ ولم يتعرض له الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وعصر المعجزات قد انتهى منذ زمن بعيد، ومن آن لآن يظهر رجل يدّعي النبوة، أو يزعم أنه المهدي المنتظر، أو يؤكد أنه أحد الصالحين قد بعثه الله من جديد لهداية الناس .. وهذه كلها خزعبلات وبدع، ما أنزل الله بها من سلطان .. وقد يشوبها الكفر والعياذ بالله، وقانا الله وإياكم من شره ..»

وقال طبيب ينتسب لحزب العمال الإسرائيلي، ومتخصص في علم النفس: «لست أجد أدنى صعوبة في تشخيص هذه الحالة، قد رأيت آلافًا مثلها في المصحات النفسية والعصبية، هذا يزعم أنه نابليون، وآخر يعتقد أنه «هتلر» زعيم النازية، وعلاج مثل هذه الحالات ممكن، فقد رأيت حالات كثيرة شفيت تمامًا ..»

أما مدير المخابرات الإسرائيلي فقد صرح: «إن ما يهمني هو اعتبارات أمن الدولة، أنا لا أعترض على رأي رجال الدين أو علماء النفس، لكنني أشك أن وراء هذا الرجل خطة مدبرة .. الحذر واجب، فقد يكون أحد العملاء أو الجواسيس الخطرين، وقد كان في نيتنا القبض عليه، لكن بعد أن شاع أمره، وسلّطت عليه الأضواء، لم يعد هناك مجال للخوف منه»

وتمتم رجل في الشارع: «الله قادر على كل شيء، لا يمكن الجزم بكذبه أو مرضه النفسي أو عمالته لجهة من الجهات .. هذا رجم بالغيب، وليس هناك ما يمنع أن يكون رجلًا من الصالحين، أو أن يكون عمر بن الخطاب بجسده وروحه ..»

وأصر الدكتور وهيب عبد الله على رأيه وتحليله حينما قال: «ربما يكون إنسانًا أغرق في التصوف، واشتد إعجابه بعمر بن الخطاب، حتى خيل إليه أنه هو بنفسه. وأنا لي رأيي الخاص في عمر أيضًا «لا شك أنه أحد عمالقة «اليسار» في الإسلام وكذلك رفيقه أبو ذر الغفاري .. هذا شيء يجب أن يكون معروفًا. إذا ما فكرنا في التاريخ الإسلامي وتقييم رجاله

بمقاييس العصر الحديث .. وبرغم الإغراق الميتافيزيقي لعمر وغيره ، إلا أن «يساريته» كانت نقطة تحول في الكيان الاقتصادي ، والبنيان الاجتماعي والطبقي آنذاك ، كان عمر مؤمنا بالجماهير وقضية كفاحها العادل ، وهو ما يمكن أن نسميه في عصرنا ممثلًا لأماني البروليتاريا ، وتطلعاتها الثورية التقدمية ، وحقها في امتلاك السلطة ، ولم يكن عمر بقادر على أن يعلن رأيه بصراحة في البناء العقائدي للدولة القديمة ، وذلك لقوة الزحف الميتافيزيقي العارمة .. كان عمر باختصار حلقة في سلسلة النضال البطولي للطبقة العاملة ، وإن شابت تصرفاته وسياسته نزعة برجوازية لم يكن في الحقيقة - كما يبدو لي - راضيًا عنها ، لولا مداهنة الجماهير التي لا ترحم ..»

أما الجراح الدكتور محمود العناني ، فقد بقي على تحفظه : «لا أريد أن أتسرع في الإدلاء برأيي ، لننتظر قليلًا ، الكلمة الأخيرة حاسمة وخطيرة ، ومن ثم لابدِ أن يسبقها تأمل وتفكير وتمحيص» ..

وهتف الدكتور عبد الوهاب السعداوي حينما سأله المحرر : «الموت حق .. والبعث حق .. وليس هناك مؤمن في أي دين من الأديان ينكر قدرة الله .. إن الله على كل شيء قدير ..»

وصرحت الممرضة رجاء قائلة : «رأيت نور اليقين على وجهه ، وقرأت في عينيه الصدق ، وسمعت من كلماته الإخلاص

والإيمان ، كانت روحه تشملنا وتحلق فوقنا .. لقد آمنت بصدقه .. لم أر في حياتي قط شبيهًا له ..»

لكن الأمر الذي اهتمت به الصحف أشد الاهتمام ، وأولته الكثير من الرعاية والتدقيق ، هو قصة «راشيل» مع الخليفة ، فقد كتبتها إحدى الصحف في صفحة كاملة ، مزدانة بعديد من الصور ، هناك صورة لراشيل في زيها القديم «المني جيب» . ثم صورة أخرىٰ لها بالعباءة والشال الشفاف الأسود ، ولقطة ماكرة لصديقها السابق إيلي ، وقد بدا عليه الكدر وشقاء الهزيمة ، وصورة ضخمة لعمر مكتوب عليها «فارس الأحلام» وسرد دقيق لقصة راشيل مع الخليفة ، مع إضافات ومبالغات لا أساس لها من الصحة ، وأحاديث مفتراة ، وتناقلته وكالات الأنباء كحادث من أطرف حوادث العام ، وانهالت الرسائل من كل مكان مستفسرة في إلحاح ، بل إن الكثيرين من البلاد الغربية قد حجزوا أماكن على الطائرة المتجهة إلى اسرائيل .



كنت أرقب هذه وأنا لا أكاد أصدق عيني وأذني ، هل أنا في عالم الخيال ، أم دنيا الواقع؛ لقد التبس الأمر علي ، ودارت رأسي ، وشعرت بما يشبه الإغماء ..



الفصل ١١

قدمت « راشيل » إلى المستشفى محاطة بكوكبة من الحرس ، تضع على عينيها منظارًا أسود ، وتمسك بيمناها منديلًا أبيض ، وبدا الاحمرار على أرنبة أنفها ، وكانت آلات التصوير وأضواؤها تلاحقها ، وتدهمها من كل جانب ، وعدسة التليفزيون تئز أزيزًا مسموعًا ، وتحت إبطها الأيسر حملت علبة كبيرة من الورق المقوى مرسوم عليها صورة لنجمة من نجمات السينما اللامعات ، كانت أوامر الشرطة - كما بدا لي - أن تيسر لها مهمتها ، وتؤدي مطالبها دون مناقشة ، وفي غرفة الخليفة لاحظ إضافات كثيرة ، بعض اللمبات الكهربائية الجديدة ، ومذياع وتليفزيون ، وقبل أن تدخل راشيل ملت على أذن الخليفة قائلًا : « احذر يا أمير المؤمنين!! »

– « ماذا تعني ؟ »

– « أية حركة تصدر عنك قد يراها الناس في الخارج ، وأية كلمة قد يسمعونها .. »

قلب يديه قائلًا : « الحجرة مغلقة ، ونوافذها محكمة ، وجدرانها سميكة .. »

– « أخشى أن تكون بالحجرة عدسات خفية لنقل الصورة ، وكذلك مكبرات صوت مخبأة هنا أيضًا .. »

تمتم الخليفة : « هل هم جن سليمان ؟ »

وأخذت أشرح ببساطة كيف تعمل آلات التسجيل الصوتي وكيف تلتقط الصور بطريقة سرية ، والخليفة يستمع إلي في اهتمام ، وتمتم ضائق النفس : « أشعر أنا عالمكم سجن كبير »

ثم استطرد : « على أية حال ، ليس لدي ما أخاف من إعلانه ، بل على النقيض مما يتصورون ، إنني أريد أن يسمعني أكبر عدد من الناس ، لكن لا شك أن استراق السمع جريمة لا تغتفر .. »

كان أمير المؤمنين ممددًا في سريره ، شاحب الوجه ، يشع من نظراته وملامحه نور غريب ، يوحي بالثقة والأمن واليقين ، وكان يردد من آن لآخر بعض الأدعية الواردة عن رسول الله ، ويتمتم ببضع آيات من القرآن الكريم ، ولم تكن تفوته الصلاة ، فقد كان يصلي وهو راقد ، وحينما دخلت « راشيل » ، وقد خلعت عن عينيها النظارة السوداء ، وضعت العلبة على منضدة صغيرة ، ثم ألقت بنفسها لدى قدمي الخليفة ، وأخذت تشهق باكية ، أغمض عمر عينيه برهة ، ثم قال بحزم : « تستطيعين أن تجلسي بهدوء ، وأن تسدلي الشال على وجهك »

وقالت في أسى : « لشد ما تألمت لما أصابك »

– « هذا قضاء الله يا فتاة .. لعل في ذلك خيرًا كبيرًا »

قالت : « أثار مرضك موجة عارمة من القلق بين الناس »

رد في دهشة : «لماذا ؟ آلاف الناس يمرضون .. بل ويموتون كل يوم .. والمستشفى غاص بالمرضى من كل الألوان ، فلم القلق من أجلي أنا بالذات ؟ »

– «لست بشرًا عاديًا »

عتب قائلًا : « أنا عبد من عبيد الله ، أكاد لا أتميز عنهم بشيء »

– «ليس للناس حديث سواك »

هز رأسه مستغربًا : «بدعة جديدة!! »

وتنهد في حزن : « .. ولقد قال حبيبي رسول الله ، حينما رأى الأعرابي ينتفض أمامه من الخوف والروع : هوّن عليك .. فأنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة ..»

هزتها الكلمات فأردفت : «تواضعك يسمو بك إلى الأعالي ..»

– « أنا أكره النفاق ، وتزعجني تلك الأحاديث ..»

شعرت بما يشبه الخدر يسري في جسدها ، ودار رأسها بموجة عارمة من الرغبة ، ومالت نحوه هامسة : « أتسمح لي أن أقبلك ؟ »

دفعها في غلظة ، وقد تغير وجهه ، لكنها ازدادت منه اقترابًا ، ولم تفق إلا على صفعة قوية رنت على وجهها : «غادري الحجرة على الفور ..»

– « ارحمني ..»

– « الرحمة ليست استجابة للأهواء الغاشمة .. لقد تلبستك الشياطين ..»

وانهمرت دموعها من جديد ، كانت تشعر بجرح بالغ ، وخيبة أمل كبرى : « أنت تعلم أني أحبك ، وأني طلقت كل شيء من أجلك »

– « تتصرفين بعقل صبية طائشة .. لم يزل بيننا أمد بعيد ..»

– « بل أنت أقرب إلى من أي إنسان في الوجود »

– « أنانية نجسة ..»

ثم استطرد : «تترنمين بالحرية ، وحينما أمارس حقي في الرفض تغضبين .. يجب أن تفهمي لآخر مرة . المرأة والرجل لا يلتقيان إلا في ظل نظام سام شرعه الله ، وكل ما يحدث بين رجل وامرأة خارج هذا النطاق فهو عصيان وضلال .. قومي وإلا قذفت بك إلى الشارع ..»

مدت يديها ضارعة : «ليتك تفعل .. اضربني ثانية ..»

– « هذا جنون ..»

– « عقابك نعيم أشعر في رحابه أنني أتعبد بالآلام التي تصبها فوقي يا أعظم من رأيت ..»

التفت الخليفة إليّ قائلًا : «من أين أتت بهذه الكلمات الغريبة الجريئة ؟ ..»

فاقتربت منها ثائرًا وهتفت : «تريدين مادة صحفية جديدة للتشهير بالرجل .. أليس كذلك ؟ »

– « أنت تظلمني يا رفيق ..»

– « إنني أصفعك بالحقيقة المرة ، برغم الحراب التي تحميك ..»

قالت وهي تمد يديها في توسل : «لم أفعل شيئًا من هذا ، « إيلي » الملعون هو الذي شهّر بنا غيرة وحسدًا .. أنت تعرف إيلي أيها الرفيق .»

تساءل عمر عما أعني ، فأخبرته بما كتبته الصحف عنه وعنها ، ولم يخفف عليه أن المقصود من ذلك هو تشويه سمعته ، والنيل من استقامته ، حتى ينصرف الناس عنه ، فيتبرأ منه العلماء ، ولا تجري العامة وراءه أو تثق به ، فلوح عمر بيده مغيظًا وقال : « هذه جريمة يعاقب عليها الشرع ، كيف يرمون فتاة مثلها بهذا الادعاء ، وكيف يتهمونني بما لم أرتكبه . إن بين سطور كلماتهم تلميحًا إلى فعل شائن رهيب لا يمكن أن يصدر عني ..»

أردفتُ متحديًا : « أتخونين العهد ، وتشاركين في صنع الأكاذيب ؟ »

– « بل فعلها حاقد عليّ وعليك ..»

صمت عمر برهة ، وبدا على وجهة التفكير والحيرة : « لعلها مظلومة يا فتى .»

– « إنها تلعب بنا وتخدعنا يا أمير المؤمنين ..»

نظر الخليفة إليها ، وقال وهو يكظم انفعاله : « ديننا يا فتاة يدعو إلى التبين والعدل عند إصدار الحكم ، أنا لا أملك الآن سلطة تفرض عقاب الله ، لكني امتلك شيئًا آخر ، وهو أن أرفض السير في موكب الخداع ..»

أخذت تبكي وتنتفض ، ومن بين دموعها تقسم بأنها بريئة ثم تؤكد أنها لن تستطيع أن تعيش بعد اليوم بعيدة عن الخليفة ، هي ستسير وراءه أينما تذهب ، وتتعلق بأذيال ثوبه ، برغم كل ما يحدث ، وإنها عند اليأس لن تبقى في الحياة لحظة واحدة فستترك الدنيا بكل من فيها وما فيها ، وتجأر إلى الله شاكية ، ويبدو أن قلب الخليفة قد رق لها ، وهذا ما زاد من حنقي ، قال الخليفة : « لماذا تحبينني ؟ »

همست في شرود : « كثيرًا ما لا يتبين الإنسان السبب الكامن وراء الحب »

صاح محتدًا : « هذا عمي »

قالت في نبرة صدق : « أنت تختلف عن الآخرين »

– « شيء طريف ؟ هه!! »

– « لقد كذبوا .. أنا لا أتسلي بحادث مثير .. صدقني »

– « ماذا إذن ؟ »

قالت : « أنت رجل صادق مؤمن .. لا تهاب أحدًا »

– « إلا الله ..»

– « أجل .. جئت منزهًا عن كل غاية دنيوية منحطة .»

قال الخليفة ، وهم ينظر إلى سقف الحجرة المضيء الناصع البياض : « أنت تقتربين .. قلبي لا يكذب .. الذين يعشقون الجمال الظاهري وحده سطحيون ، والذين يعشقون القوة المادية ، ويستسلمون لها ضعفاء .. والذين يتعبدون في محراب اللذة الفانية هم مشركون ، أو عبدة للأوثان . عندما تعشقين الحق والخير والجمال كوجه من أوجه الكمال الإلهي في خلقه فستكونين مع الرجل الصاعد .»

ثم التفت إليها قائلًا : « أتؤمنين بالله ؟ »

— « أؤمن به الآن ؟ »

— « لماذا ؟ »

— « لأني رأيت إيمانك ينعكس عليك بالحق والخير والجمال ..»

— « أتؤمنين بالأسوة العظمى .. محمد ..»

— « أجل .. لأنك تؤمن به ..»

صاح في انفعال : « أنا .. من أكون ؟ قولي آمنت به ، لأن دعوته حق ..»

طأطأت رأسها في استسلام ورددت : « آمنت به لأن دعوته حق .»

— « ولن يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .»

— « آمنت ..»

وعاد إلى النظر في السقف الأبيض المضيء : « وللإيمان يا فتاة تكاليف باهظة .. أقلها الموت في سبيل الله .. يجب أن تخلصي إيمانك من الغرض الدنيوي والعرض الزائل .. والخلاص من أهواس النفس ومجاهدتها هو الجهاد الأكبر كما قال حبيبي رسول الله .. والحب هنا له صورة جديدة .. المؤمن إن أحب المرء لا يحبه إلا الله ، وإن كرهه لا يكرهه إلا لله .. هذا شيء هام من صفات المؤمن ..»

تمتمت خافضة رأسها : « أحببتك لله وفي الله ..»

— « عندئذ تستطيعين أن تعيشي في جو من السعادة لم ينقه قلبك من قبل ، ويصبح الحب الظاهر عبادة ، وتتحول اللذة البهيمية إلى علاقة إنسانية نظيفة ، مليئة بكل المتع ، واسمها الزواج .. وتمسى العباءة التي تلبسينها سترًا وكرامة ، وترين المنحرفين العراة قطيعًا من الحيوانات الضالة ، أبعد ما يكونون عن نوع الإنسان الذي كرمه الله .. قولي معي يا راشيل أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ..»

هكذا تكلم عمر ، كنت لا أستطيع أن أصدق ما تقع عليه عيناي ، أو تسمعه أذناي ، وراشيل ترتل الشهادتين في صدق لا شك فيه ، ورأيت الرضى والفرح يكللان وجه أمير المؤمنين غير أني تألمت في اليوم التالي أشد الألم ، فقد التقطت الصحف نبأ إسلام راشيل ، وأبرزته في صدر صفحاتها ، وكتب أحد المعلقين الصحفيين قائلًا : « إن هذا الرجل الدعيّ يحمل بذور

الفساد والتمرد لأجيالنا التي ولدت في غمار النار والدم والعناء الطويل ، هو فتنة خطيرة يجب استئصالها قبل أن يفلت الزمام ، واقترح على الحاكم العسكري العام طرده من القدس فور شفائه ، لم يعد يخالجني أدنى شك في أن الرجل دسيسة هدفها تحطيم دولتنا الفتية من الداخل ، بعد أن عجز الأعداء عن تحطيمها من الخارج .. لسوف يؤلب علينا المسلمين ، ويفتن غير المسلمين من المسيحيين واليهود .. إن له قدرة خارقة في التأثير على ضحاياه .. فهو يستغل الفراغ الروحي ، ويملأ عقول الناشئة بالخرافات الجذابة » .

وأصدر الحاخام قرارًا بطرد راشيل من جنة إسرائيل الروحية ، وأوصى بحرمانها من بعض الحقوق المدنية .

لكن أحد علماء المسلمين الرسميين ضحك ملء شدقيه وقال : « إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء .. أنا عشت طول حياتي مؤلفًا للكتب ، وخطيبًا بارعًا ، وملقيًا للمحاضرات فلم يسلم على يديّ فرد واحد .. لله في ذلك حكم ..»

وتسابقت المدارس والجامعات والأندية الثقافية والرياضية والمكتبات العامة ، وبعض الأحزاب الصغيرة في توجيه الدعوة إلى الخليفة لعقد ندوات عامة يشترك فيها كبار المفكرين والجمهور أيضًا ، يدار فيها النقاش عن مختلف القضايا والموضوعات الدينية خاصة ، والفكرية عامة .. وهناك وراء الكواليس حيث التكتم والصمت والتحركات الخفية ، كانت راشيل

تعاني من أمر عاجل ملح ، فقد استدعاها مدير المخابرات إلى مكتبه في مساء اليوم التالي ، وناقش معها التسجيل الصوتي لكل ما دار في حجرة الخليفة : « وأخيرًا إما أن تكوني ممثلة بارعة ، أتقنت دورها على الوجه الأكمل ، وإما أن يكون الرجل قد خدعك ، وأقنعك بترهاته .. أردت اصطياده فاصطادك ..»

أخذت راشيل تقهقه في توتر وتقول : « حتى أنت تراودك الشكوك ؟ إنه لم يلمس جسدي حتى الآن إلا بعصاه وصفعاته .. بيني وبينه آلاف الأميال .. لابد أن يقصر الطريق ، وتزول العقبات حتى نبلغ مأربنا .. وذلك عن طريق الثقة التي أنالها لديه .. إنني أعرف كيف أؤدي واجبي من أجل إسرائيل الكبرى .. وراشيل مستحيل أن تخون كفاح الأجيال الطويل من أجل صهيون .. أمير المؤمنين يظن أنه امتلكني .. أنا التي ستمتلكه .. عندئذ تتعرى الأكذوبة الكبرى ، ويسفر وجه الحقيقة ..»

كان وجهها ينطلق بشرًا وهي ترفع يدها وتهتف : « عاشت إسرائيل الكبرى .. الموت للمسلمين » .

قال مدير المخابرات ، وقد بانت مسحة من الاطمئنان على وجهه : « ما رأيك في الرجل ؟ »

– « شخصية قوية واعية جذابة »

– « أعني ماذا تظنين وراءه ؟ »

– « آه .. لم أتبين هدفه الحقيقي بعد .. يزعم أنه يدعو إلى الله وحده ، ويريد أن يعود الناس إلى الإسلام ومبادئه من جديد ، ففيه السعادة والخلاص .. وأنا أرى أن البطش به حماقة ؛ لأنه لن يفض الغموض المحيط بالرجل .. ولا خوف من دعوته فستذروها الرياح كما حدث لكثير من الدعوات قبل .. علينا بالصبر .. ذلك هو الطريق الوحيد لكشف مخططه الغامض ..»

ثم ابتلعت ريقها قائلة : «لكن يجب أن تبعدوا « إيلي » عن طريقي ، وإلا أتلف كل شيء ، إن الغيرة قد تدفعه إلى ارتكاب حماقة ، فنخسر الكثير .»

همس مدير المخابرات : « اطمئني من هذه الناحية ، نحن نراقب كل شيء ، لو رأينا من الضروري اعتقال « إيلي » لاعتقلناه على الفور .. لن نسمح لأي فرد مهما كانت مكانته أن يعوق مسيرتنا ..»

لم تكن «راشيل» تجد راحتها حتى في بيتها ، أجراس التليفون تدق باستمرار ، المخبرون الصحفيون يحاصرونها ويلاحقونها أينما ذهبت ، نظرات المارة الذين يعرفونها تربك تحركاتها ، وتثقل على قلبها ، الباعة يعطونها ما تريد دون مقابل شركات الدعاية يرسلون إليها بالكثير من الهدايا ،

وبعضهم يريد أن يستغل صورتها في الإعلانات مقابل مكافأة سخية ، وقالت راشيل لأبيها شاكية : « هؤلاء الصحفيون شيء رهيب مقيت »

غمز الأب بعينه اليسرى قائلًا : «تستطيعين أن تستغلي الموقف »

– « كيف ؟ »

– « لا تعطيهم شيئًا إلا بثمنه ..»

– «لكني لا أريد »

قال غاضبًا : « سيكتبون من محض خيالهم .»

وتدخلت أمها قائلة : « أرى أن تكتب راشيل مذكراتها ، وتبيعها لكبريات الصحف وبذلك تجني من ورائها ربحًا كثيرًا .»

قالت راشيل : «لكن إيلي سيغضب ..»

صاح أبوها - « فليذهب إلي الجحيم ..»

– « ألم توافق على زواجي منه ، وتلح في ذلك ..»

قال مستنكرًا - « أنا ؟! لا أذكر ذلك »

التفتت راشيل إلى أمها مستشهدة ، فقالت الأم : «لم يعد « إيلي » مناسبًا .. يستطيع أن يجد عشرات غيرك ..

– « ومستقبله العظيم ؟! ونفوذه الكبير ؟! وجماله ؟! هل نسيت أنت الأخرى يا أماه ؟! »

زمجرت أمها قائلة : «باختصار ، لم يعد « إيلي » جديرًا بك .. فكري الآن في موضوع كتابة المذكرات ، ستدر علينا دخلًا كبيرًا عاجلًا .. كوني عاقلة وانتهزي الفرصة التي قد لا تتكرر ..»

قالت راشيل بحزم : « أنا لا أفكر في شيء من هذا القبيل الآن » .

أمسك أبوها بذراعها ولواها في عنف قائلًا : « أتريدين ضياع الفرصة الذهبية يا حمقاء ؟ »

وسددت أمها إليها نظرات غاضبة قاسية ، وفكرت راشيل ماذا تقول .. المخابرات يريدون امتصاصها ، وعائلتها تهدف إلى استغلالها ، وإيلي يشتهي جسدها كحيوان مفترس ، والصحافة تؤرق عليها حياتها بغية إمتاع الجماهير ، ورقع نسخ التوزيع ، العالم أناني جشع يبدو كسوق كبرى للعبيد .. بورصة للمضاربات .. إنه لشيء مؤلم ..

همست في دهاء : «انتظرا .. لسوف أتدبر الأمر بطريقة تسركما »

قال أبوها : «قبل أن تفوت الفرصة .. إن شقتنا حقيرة لا تليق . والشارع الذي نعيش فيه ضيق مزدحم باليهود الشرقيين الأقذار .. إنني أحلم بحي راق .. وبيت فخم .. تحوطه حديقة وأزهار .. ورصيد ضخم بالبنك .. ومشروعات تجارية كبرى ..»

ونظرت أمها عبر النافذة المفتوحة ، وقد رفعت عنها الستائر الحائلة اللون وقالت : « عندما تكتبين مذكراتك يا راشيل ، فستتلقفها الصحف ، ولسوف تلهث وراءك دور النشر ، ومؤسسات السينما والمسرح .. ودور الترجمة إلى اللغات الأجنبية .. سيرتفع اسمك إلى عنان السماء ، وستكونين أشهر امرأة في أيامنا هذه ..»

ثم توقفت أمها عن الحديث فجأة وقالت : « ألا تستطيعين الزواج منه ، ولو لمدة قصيرة ؟ لو أمكن ذلك لبلغت شأوًا عظيمًا ، ولدرجنا على بساط من ذهب ..»

وهز الأب رأسه قائلًا : « هذه الخرافة يجب أن تعيش .. ذلك الرجل كنز ثمين ..»

قالت راشيل وهي شاردة : « الكارثة أنه لا يشعر بوجودي كامرأة ..»

قالت الأم : « صبرًا يا ابنتي ، لا تتلهفي عليه أكثر من اللازم ، ازهدي فيه يأت راكعًا متوسلًا ، ويلح في طلبك ..»

قالت راشيل : « أو تظنين أن هذا الأسلوب قد يفلح معه ؟ »

– « بالتأكيد .. إنه رجل ..»

– « أعرف .. لكنه نوع فريد ..»

– « جربي يا فتاتي .. لن تخسري شيئًا ..»

همست راشيل في شرود : « ألم تجربي الوقوف لدى أقدام جبل عالٍ هامته تعانق السحب البعيدة ؟! ألم تفكري في صعود ذلك الجبل ؟! إنه شيء فوق التصور والخيال!!

قال أبوها ساخرًا : « إن طائرة « هليكوبتر » تنقلك إلى القمة في لحظات لكنك لا تبحثين عن وسيلة ..»

بادلته راشيل سخرية بسخرية وقالت : « إن كل المقاييس العسكرية والتكنولوجية هنا تفشل تمامًا .. عمر لن أصل إليه بهذا الأسلوب ، ولو امتطيت متن صاروخ ذري .. ذاك عالم آخر لا تعرفون طبيعته »

وتثاءبت وهي جالسة على المقعد ، ثم راحت في سبات عميق على الرغم من أن أمها وأباها ما زالا يثرثران ..

الفصل ١٢

زادت الهموم ، وطفح الكيل ، وأخبار الخليفة تقيم الدنيا وتقعدها ، ولا أدري كيف ستتصرف قوات الاحتلال إزاءه ، ولا كيف يواجه عمر خبث هذا العالم ودهاءه ، وهو الرجل الطيب ، الشجاع القلب ، وأخذت أتصل بمن أثق فيهم من المعارف والأصدقاء ، وأناقش الأمر معهم ، كان بعضهم يرى أن أنسحب من هذا الضجيج كليةً ، حتى أوفر على نفسي المتاعب ، وكان البعض ينصح بأن ندبر وسيلة هرب محبوكة للخليفة ، كي يدخل إلى بلد عربي أو إسلامي ، فهناك قد يجد التربة الخصبة لدعوته ، والمناخ الملائم لأفكاره ، والحفاظ على حياته!! وبعض الأصدقاء كانوا يعجبون : لماذا أتى عمر بن الخطاب بالذات إلى القدس ، وهي تحت الحكم الإسرائيلي ، وتغص بالمشاكل والاضطرابات المحزنة ؟!

ورأيت أن أزور أحد علماء المسلمين الرسميين في بيته كي أتدارس معه الأمر ، فقد يكون ما نشرته الصحف على لسانه مدسوسًا عليه ، وأحطت زيارتي بالكتمان ، وحينما رآني الرجل رحب بي ، وأخذ يسألني عن كل شيء يتعلق بالخليفة ، لكني لم أخطئ الفتور والخوف اللذين خالطا كلماته وتصرفاته ، لقد شرحت له القصة منذ بدايتها حتى اللحظة ، وفي النهاية قلت له : « أخاف أن يروح الخليفة ضحية مكيدة يهودية »

ورد الشيخ قائلًا : « إن كان مؤيدًا من الله ، فلن يصيبه أذى ، ولو اجتمع أهل السماء والأرض ، إنسهم وجنّهم ، على أن يضروه بشيء لن يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه ..»

ولاحظت في كلماته قدرًا من السخرية ، فقلت : « هذا موقف سلبي لا يليق .. كان الرسول مؤيدًا من الله ، لكنه كان يتخذ لكل أمر عدته .. في السلم أو الحرب ..»

صاح في وجهي محتدًا : «ماذا تريد مني ؟ أأذهب إلى رجل مجهول الهوية ، وأقبّل يديه ورجليه كما يفعل الغوغاء ؟ وماذا سيكون موقفي أمام السلطات الإسرائيلية ؟ سيتهمونني بالمشاركة في تدبير مؤامرة مع الوافد الغامض لخلق القلاقل ، وأنا هنا مسئول عن أسرتي وأولادي وأموالي ..

إن مصلحتكم هنا ، ومصلحة الدين تقتضي أن يعود عمر من حيث أتي ..»

قلت ذاهلًا : « أنت تناقش الأمر بطريقة غريبة .»

– «بل واقعية ..»

– «لقد جاء يردد كلمات الله .. جاء يدعو النيام .. والمنحرفين .. ويحارب الجاهلية الجديدة ..»

اكفهر وجه الشيخ وقال : «ونحن ؟ إننا نحمل الرسالة ، ونفسر القرآن ، ونفقه الناس بدينهم .. أيمكن أن يضيف أي إنسان شيئًا جديدًا ..؟! الجاهلية قضى عليها محمد ... ولن تعود »

ماذا أقول للشيخ ؟! أأقول له أن عمر يتكلم بأسلوب غير أسلوبكم ، وأن كلماته ومشاعره وسلوكه وحدة واحدة ، وأن يقينه تتولد منه قوة ساحرة تمتلك زمام التغيير والبعث ، وأن عالمه بريء من الخوف والشرك والنفاق واليأس ، وأن واقع المسلمين اليوم يعطي الدليل على فشل هذا الشيخ وأمثاله ، ويؤكد ملامح جاهلية من نوع خبيث ، يتوارى في العلم والتقدم المادي ، وغلبة الفكر المعاصر بحيله وهواجسه وخداعه ؟ لكني أريد أن أتذرع بالصبر ، فقد أستطيع أن أجمع بين الشيخ والخليفة لعلنا نصل إلى حلٍ مُرْضٍ فقلت ضارعًا : «ما رأيك لو التقيت به »

– « أنا ؟! »

قالها في استغراب ، فقلت : « وماذا في ذلك ؟! »

– « أنا أشك في القضية من أساسها ..»

– «تعال .. وتحقق ..»

– «ليس هناك ضرورة ..»

لم أستطع أن أكبح غضبي فقلت : «رجل من الصفوة ، جاء ليقول كلمته ، فترفض سماعها ؟! »

والله لو طلبوا منك أن تخرج لاستقبال وزير الحرب الإسرائيلي ، للبست أفخر الثياب ، ولهرولت إلى مكان اللقاء ، وعلى ثغرك ابتسامة عريضة ، ولبقيت الساعات تستمع إلى كلماته ، وتهز رأسك شاكرًا ..»

كاد يحرقني بنظراته، لكنه تمالك أعصابه وهتف: «أنت غر ساذج، لو وضعت يدي في يد الرجل، لفقدت الأرض التي أقف عليها لأدافع عن دينكم وأعراضكم، ولو اتضح أن عمر لا وجود له اليوم، لخسرنا وخسر الإسلام الكثير.. لقد أحطت بعلوم الدين، ولست في حاجة إلى المزيد ..»

لوحت بيدي في غيظ وصحت: «الدين ليس مجموعة من الكتب تحفظونها عن ظهر قلب. نحن موتى.. لقد خسرنا كل شيء.. الدين والدنيا.. والملايين منا ركعت في ذلة تستجدي انسحاب الدولة الصغيرة.. برغم إحاطتنا بجميع علوم الدين.. إن التجربة أقوى صفعة على وجه ادعاءاتنا وغرورنا.. أنتم موظفون.. أذناب ولستم علماء دين ..».

أشار الشيخ بسبابته المرتجفة صوب الباب قائلًا: «إذا لم تخرج فسأستدعي الشرطة .»

نظرت إلى وجهه المحتقن المكتنز، وشرر الغضب التي تتطاير من عينيه، وصدره الذي يعلو ويهبط، وقلت: «أتؤمن بالله ؟!»

ظلت سبابته المرتجفة تشير على الباب، دون أن ينطق، فاستطردت: «إذا كنت مؤمنًا به، فيجب أن تؤمن بقدرته ..».

لكن الوجه المكتنز ظل يرشقني بالنظرات الحادة.

– «وليس بمستبعد أن يبعث الله بعمر ..»..

وهممت بالخروج وأنا أقول: «تتخلفون دائمًا.. تركبون ذيل الموكب.. وتلبسون أي شعار جديد ثيابًا مهلهلة تسمونها الدين.. وتجيدون التأويل الكاذب لتجتلبوا رضى الحكام.. في ذيل الموكب دائمًا.. لكن العامة في الشوارع سيبتهجون.. سيتلقفون الحقيقة، ويتشربون رحيقها دون حذلقة.. ولن يهابوا الموت.. إن ظهور عمر خطر على إسرائيل، لكنه أشد خطرًا على دنياكم المليئة بالكذب والخوف والنفاق.. ولهذا تكرهون ظهوره ..».

وعندما بلغت الباب سمعته يزمجر في غضب عاصف: «إن مدافع الإسرائيليين تستطيع أن تكنس هذه الجماهير في خمس دقائق، وتكنس معها الخرافات، لسنا في حاجة إلى عمر جديد.. لكننا في حاجة إلى صفقة من السلاح ..».

قلت وأنا أغلق الباب بيني وبينه: «كان لدينا السلاح.. تركناه مكدسًا في الميادين.. أنسيت؟» ضايقتني كلماته، الأسلحة وحدها لا تغني، والرجال المدربون لن يغيروا إلا إذا عمرت قلوبهم مبادىء، نهتم بالسلاح أكثر من اهتمامنا بحامل السلاح، ماذا أقول؟»

وأخذت أسير في الطريق العام، وكأني أخوض كابوسًا مزعجًا، وفتحت عيني لأرى الدكتور عبد الوهاب السعداوي يشتري بعض الصحف، وعلمت منه أنه منكب من جديد على دراسة تاريخ الخليفة، وقال إن هناك أشياء هامة يريد أن

يسأله عنها، فلماذا اختلف مع خالد بن الوليد وعزله؟ وكيف اعترض على صلح الحديبية برغم إقرار الرسول له؟ والملابسات التي أحاطت باغتياله؟ ... إلخ.

قلت: «يا دكتور؛ هذه أمور ثانوية .. المهم أمن الخليفة الآن والحفاظ عليه، وتمكينه من تأدية واجبه .. الناس في هرج ومرج .. والإسرائيليون لا شك يدبرون مؤامرة .. وراشيل هذه لا أثق فيها .. يجب ألا تسبقنا الأحداث ..»

قال عبد الوهاب في ثقة: «عمر يعرف ما يجب عمله»

– «ليس له سابق معرفة بما جد من حيل خبيثة ..»

– «لا يا صديقي .. المؤمن يرى بنور الله .. ولقد جاء عمر لا لنحميه، ولا ليقود جيشًا، ويدبر هجومًا عسكريًا خاطفًا .. جاء ليرشدنا فنسير على هدى الله .. جاء كالصدمة الكهربائية التي تهز رأس المريض وجسده فينتفض .. ثم يفيق وقد زاله الروع والداء .. كصفارة الأمان التي تهيب بالناس أن يخرجوا من ظلمات الخنادق والكهوف إلى الحياة والنور .. إن دورنا ينصبُّ الآن على استيعاب كلماته .. وبعدها نخوض الانتفاضة الكبرى، ونجابه الزيف والاستسلام .. جهادًا في سبيل الله ..

لشد ما تريحني كلمات عبد الوهاب، وتبعث في قلبي قدرًا كبيرًا من الطمأنينة والأمل، وهمست: «ألديك أدنى شك في أنه عمر ..»

أشرقت ملامحه بالسعادة واليقين، وقال: «استجاب له عقلي وقلبي .. إيمانه أقوى من أي شك، علمه عالم فسيح رائق .. إن لم يكن عمرَ بالجسد. فهو عمر قلبًا وروحًا وفكرًا وسلوكًا .. الإنسان ليس من دم وعظم ولحم، فهذا هو التركيب الحيواني فيه، ويشترك فيه جميع الناس .. إنما يتمايز الإنسان من الإنسان بالعقل والروح والسلوك .. أتفهمني؟ هو عمر وما خالجني قط أية ريبة فيه ..

تنهدت في حسرة، ثم شرحت له ما حدث بيني وبين ذلك الشيخ، وقلت: «ليت شيخ المسلمين يفهم هذا الفهم ..»

أخذ عبد الوهاب يحرك رأسه يمنة ويسرة ويقول: « .. ومضت دعوة الرسول في الطريق الطويل .. لم يعقها حقد أبي جهل ولا عداء أبي سفيان .. ولم ينل من قوتها إرجاف المنافقين، وادعاءات أحبار اليهود، ومضى عمر وبلال وسلمان وصهيب .. ومئات من خلق الله الفقراء أو العبيد .. وصنعوا بعون الله أعظم حدث في تاريخ الإنسان .. يا عبدي أطعني تكن ربانيًا، تقول للشيء: كن، فيكون ..»

لست أدري من أين أتى الدكتور «وهيب عبد الله»، فقد داهمنا من الخلف، ووضع يدًا على كتفي، وأخرى على كتف الدكتور عبد الوهاب، ثم قال ساخرًا: «بكل تأكيد، تتحدثان حديث خرافة»

– «كل ماركسي زنديق ورب الكعبة ..»

هكذا تكلم عبد الوهاب ، فقال وهيب بازدراء : « أغرقتم الناس في هوس جديد .. لا بأس .. إنه نوع من المخدر لتسكن آلامنا .. لا شك أنه شيء طريف ، وتراودني فكرة أطرف ، ما رأيكم لو عرضنا فلسفة ماركس وإنجلز ولينين على أمير المؤمنين يبدو لي أن الرجل واسع الأفق ، وقد تجد الفلسفة قبولاً لديه . سيكون ذلك - لو حدث - ضربة موجهة إلى صميم اليمين ..»

دفعه عبد الوهاب في صدره حانقًا : « هذر سخيف ، أنت تفتقد الكثير من اللياقة والأدب هز وهيب رأسه وكتفيه قائلاً : « هذا رأيي .. الرجل لا يرفض مناقشة أي شيء .»

والتفت إلى وهيب قائلاً : «كيف أصبح الناس في روسيا ماركسيين ؟ »

قال بهدوء : «تطور تاريخي حتمي ..»

– «كان التطور الحتمي حسبما ظن ماركس سيبدأ في مجتمع الصناعات في أوروبا ، لكن ذلك لم يحدث ..»

– « هذه مسألة فرعية .»

– «فلأصحح لك .. فئة قليلة من حملة السلاح ، خدعت كل الجهات ، واستغلت سخط الجماهير وبؤسها ، وأغرقت الناس في بحار من الدم ، وحكموا بالرعب ، وساقوا الناس إلى فلسفة دموية حتف أنوفهم . يستطيع أي طاغية يملك القوة أن يفعل

نفس الفعل ، ولو كان على النقيض من ماركس .. هذا يحدث دائمًا في كل حقب التاريخ ..»

ابتسم وهيب في خبث وقال : «كيف تتكلم هكذا عن جيل الطليعة الثورية ، رعيل الصفوة .. إنهم طائفة من المثقفين الأذكياء المخلصين ، سبقوا عصرهم ، ووثبوا بالتاريخ وثبة كبرى إلى عالم اليوم .. هذه الوثبة حطمت في انطلاقتها العظمى بعض الرءوس العفنة .. لا شيء في ذلك ..»

ثم استطرد ساخرًا : «الطريق إلى الفردوس محفوف بالمكاره ..»

قلت : «لو بلغت الجنة على أشلاء ملايين القتلى لكنت ..»

قاطعني وهيب ضاحكًا : «وحشًا كاسرًا .. مجرمًا .. أعرف ..»

ثم استمر يتحدث في هدوء غريب : «لو سألتموني رأيي ، لقلت يجب أن يشنق هذا الرجل في ميدان عام ، بأيدي العرب أنفسهم ، حتى أمسكت بذراعه قائلاً : « ألم تقل بالأمس أن عمر كان في صف الجماهير الكادحة ..»

– «لقد أدى دوره ، ولكل عصر رجال وقيم ..»

قلت مستفسرًا : «ماذا تعني بالتقدمية يا وهيب ؟ »

قال وهو يبتسم : «العلم .. أولاً .. معناه رفض للمسلمات القديمة ، والمبادىء الانهزامية الرثة .. ثم الطعام لكل جائع .. العمل لكل عاطل . القضاء على كل ألوان الاستغلال والخداع كي

توجد الحرية الحقيقية .. والإيمان بالواقع . قلت : « وماذا قال عمر ؟ »

أسرع عبد الوهاب قائلًا : « .. كان حاكمًا ما أنجبت البشرية على مثاله في العدل والعفة والرحمة ، واحترام العقل .. نزل الوحي مرات يؤكد صحة رأيه .. لبس رداءً واحدًا .. اشتمل ببردة رخيصة خشنة .. وكان يملك غنائم أكبر دولتين في العالم المعمور .. وبكى من خشية الله .. وساق ولاته للعدل .. عالج مشاكل عصره كأمهر ما يكون الطبيب يا طبيب .. خاف أن تعثر بغلة في العراق فيحاسبه الله عليها ، وطاغوت الكرملين كان يسفك دماء الملايين باسم مصلحة الملايين .. كانوا يرهبون الطاغية وهو مسجى على فراش الموت .. وامرأة واجهت عمر وخطّأته .. فنزل على رأيها صغيرًا .. يا ابن التقدم والحرية والعلم .. أين نحن من عمر وعصره .. »

أطرق وهيب صامتًا .. ظل شاردًا بضع لحظات ، ثم رفع رأسه وقال في شيء من الارتباك : « لا شك أنه رجل يستحق الاحترام والدراسة . لكن المشكلة التي لا أجد لها تفسيرًا ولا قبولًا ، هي أن يبعث أحد الموتى بعد تلك القرون الطويلة .. »

خلع عبد الوهاب حذاءه ، ثم وقف وقفة وقال : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، وكذّب به قومك وهو الحق ، قل لست عليكم بوكيل - لكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون - وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ، فأعرض عنهم

حتى يخوضوا في حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان ، فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين - صدق الله العظيم .. »

وتعجب لشحوب وجه الدكتور وهيب الذي تمتم : « كأنما نزلت هذه الآيات موجهة إليّ .. »



الفصل ١٣

أُستُدعي أطباء المستشفى وغيرهم من العاملين لاستجوابهم في بعض الأمور الخاصة بالمريض المشهور ، وكان السؤال الأول : هل لوحظ أي شيء غريب في بطن المريض أو أحشائه ؟ كان السؤال مضحكًا ، وكانت الإجابة لا تحتاج إلى تأكيد ، ولم تؤد إلى أية حيرة ، أما السؤال الثاني وهو الأهم فقد كان عن هذيان المريض أثناء إفاقته من التخدير ، فرووا الوقائع كما حدثت دون زيادة أو نقص ، بل تطوع الدكتور عبد الوهاب وشرح لهم من هو النعمان بن مقرّن ، ومن هو سعد ، اللذان قصدهما الخليفة بالحديث ، غير أن ضابط المخابرات سأل في تهديد : « هل ذكر اسم أحد الفدائيين أو المنظمات الفدائية ؟ »

– « لا .. »

– « هل جاء على لسانه ذكر لأية بلدة عربية أو إسلامية ؟ »

– « لا .. »

أبدى رجل المخابرات الشك في حديثهم ، وصرخ : « لا يمكنني الوقوف مكتوف اليدين أمام مؤامرة تحاك تحت سمعي وبصري .. »

قال عبد الوهاب : « قلنا الحق ولا شيء غير الحق »

وضحك الدكتور وهيب ساخرًا وقال : « حتى أنتم تسقطون ضحية خرافة ، رحم الله الشاعر القديم حين قال :

حياة ثم موت ثم بعث

حديث خرافة يا أمر عمرو

وقال الجراح المصري الدكتور محمود العناني وهو يضغط على مخارج الحروف : « ليس لدي أي تعليق ، أنا هنا لأجيب بلا أو نعم .. »

أما أنا فقد عزلوني وحدي ، واستمر التحقيق مع الأطباء فترة قصيرة ، وعندما خرجوا تهيأت للدخول ، وكم كانت دهشتي حينما وجدت جنديين مسلحين يأتيان ، ويدفعانني دفعًا إلى سيارة مغلقة ، تبدو كالزنزانة المظلمة ، ثم تنطلق بي إلى مكان ناء بالقدس الجديدة . إنه معتقل من المعتقلات لم أحظ بشرف المثول فيه قبل ذلك ، ثم قذفوا بي في حجرة مظلمة ليس بها فراش ولا ماء . كان هناك دلو صغير في أحد أركانها ، يبدو أنه لقضاء الحاجة ، وبقيت نهبًا للظلام والصمت والانتظار عدة ساعات . مرت كدهر ، وعند منتصف الليل أخرجوني من الزنزانة ، دفعني السجان بغلظة وجفوة . ثم صفعني على القفا .. أول القصيدة كفر .. هذا لا يُبشر بخير على الإطلاق . ثم رفسني بحذائه الثقيل .. غلت الدماء في عروقي ، ثم التفت إليه في غيظ ، هدر كوحش مفترس « ألا يعجبك تصرفي » « خذ » ثم صفعني على وجهي ، وأعقبها بلكمة قوية سددها إلى فكي الأسفل

ترنحت على أثرها . لكني تماسكت ولم أسقط .. وتمتمت : « هذا ظلم ..»

قهقه في سخرية ، ودفعني من الخلف حتى كدت أرتمي على وجهي ، فتلقفني رجل آخر ، وقال في رقة : «لماذا تقسو عليه هكذا ؟ » ودهشت .. أيوجد هنا إنسان يعرف الرقة والعطف ، وأخذني على حين غرة بصفعة مباغتة .. وشهقت .. وأتبعها بركبة قوية في بطني .. تهاويت بعدها على الأرض عاجزًا ، والألم يمزق أحشائي ، ورأسي تدور ، فجذبني من رباط العنق حتى انطرحت على الأرض تمامًا ، وانقض عليّ كلبان مدربان أخذا ينهشان في جسدي حتى مزقا سروالي ، وأسالا دمائي .. والزبانية يضحكون .. ويدللون الكلاب باسم بعض الزعماء العرب .. وصاح رجل من بعيد : «أيها الأغبياء كفوا عن هذا العنف .. العقاب لا يصح أن يسبق التحقيق ، دولتنا هي الوحيدة في الشرق التي تعيش في ظل الحرية والقانون .. وتعامل الناس من كل لون وعقيدة بصدق وعقل .. لا تسيئوا إلى سمعتنا »

إنه أحد الضباط الإسرائيليين ، هذا الأسلوب أعرفه جيدًا ، الكلمات الحلوة تحمل وراءها عذابًا رهيبًا .. يأمر بالضرب ، ثم يعتب على من نفذوا أوامره ، أو يدعو إلى الرحمة ، لكي تنصب على الأبرياء ألوان القسوة المتناهية .. هكذا الجلادون في كل مكان .. خدعة ساذجة لا تنطلي إلا على المساكين والبلهاء ..

واقترب الضابط مني ، وربت على رأسي في حنان بالغ ، فقلت : « أشعر بظمأ شديد »

فطلب من السجان كوب ماء ، ثم التفت إلي في هدوء وقال :

– « لا منجاة لك إلا بالصدق ، أنت تعرف ذلك ، والعاقل من يوفر على نفسه المتاعب ، ويوفر على غيره الجهد الذي لا مبرر له ، سوف ننتزع منك كل ما نريد بأية وسيلة .. هذه ضرورة لأنه يرتبط بأمننا وسلامة الدولة .. كل العالم يفعل ذلك .. أتعدني أن تقدم كل ما لديك من معلومات ؟ »

قلت ولساني في فمي كقطعة من الخشب : « أعدك ، ليس لدي ما أخاف من إذاعته ..»

قطب جبينه ، وسدد إليّ نظرات ذئب جائع ، وقال : «فَلْنَرَ ما حدث من البداية للنهاية ، دون أن ننسى شيئًا مهما كان تافهًا .. تكلم عن كل شيء .. كيف التقيت به؛ ماذا قلت وماذا قال ، أي تعليق صدر منه . كيف يأكل .. كيف يشرب ؟! الشخصيات التي التقى بها .. رأيه في مشكلة الشرق الأوسط ، وقرار مجلس الأمن .. والمفاوضات بين العرب وإسرائيل ..»

وأخذت أجيب على كل تساؤلاته . لكن الضابط قال : « ورأيه فينا ؟ »

– « رأيه سيء بالنسبة لكم ، وللدول العربية عمومًا . العالم كله في نظره يعاني من جاهلية سوداء ، ويغوص في مستنقع من الإثم والفساد ، ويعتوره الزيف والفساد »

ضحك الضابط حتى كادت حنجرته تنشق ، وقال : « ذلك كلام رجل بليغ يحب الإنشاء .. مثل هذا الكلام لا يقلقني ولا يزعجني ..»

وأبديت له جهلي التام بالبلد الذي نشأ فيها ، وبعلاقته بالمنظمات ..

– « لكنّك صفيّه وخليله ..»

– « أنا رجل وضعتني الأقدار في طريقه يا حضرة الضابط .. لم أكن أنتظره .. لم نكن على موعد ..»

اكتسى وجه الضابط بالجد ، وقال : «كثرت الأعمال «الإرهابية» منذ قدم ، وازدادت المظاهرات ، فما تفسير ذلك التمرد ؟ »

– « لا صلة له إطلاقًا بشيء من هذا »

– « وما دليلك ؟ »

– « أكاد أكون معه بصفة مستمرة »

– « أليس لديك عمل ..»

– « فُصلت من وظيفتي بلا سبب ..»

– « أنت داهية »

– «لم أخف شيئًا يا حضرة الضابط ..»

– « أنت تكذب .. لن نعجز عن فض الأختام .. إننا قادرون على هتك الستر عن الغيب ..»

قلت دون وعي : « إنك تتحدى الله ..»

– « هذا شأني .. أم تريد أن تحمل إلينا رسالته ..»

– « آسف ..»

– « ومخابراتنا تعرف كل شيء .. تعرف توزيع القوات العربية وقواعدهم وسلاحهم وخبراءهم الأجانب .. مستحيل أن يظل هذا اللغز « التافه » على غموضه .. إذا اعترضني سر فإما أن أحل رموزه ، أو أحطمه إلى الأبد .. أتفهم كلماتي ؟ »

قلت وأنا أتلوى : « الظمأ يكاد يقتلني .. والحر شديد »

أشار إلى رجل قريب ، وطلب منه إحضار الماء على وجه السرعة ..

– « عمر هذا لا قيمة له ، المهم الأيدي الخفية التي تحركه ، والمخطط الذي رسموه لنا .. هو مجرد آلة ..»

– « وماذا أفعل!! »

– « أنت لم تلق أشعة واحدة من الضوء ..»

– « إنني أختلف معك يا حضرة الضابط .. كل شيء واضح غاية الوضوح ..»

كور قبضته ، ولوح بها مهددًا : « أستطيع أن أسحقك كحشرة .. مئات مثلك يبتلعهم العدم في سجوننا ، ولن يبكي عليهم أحد .. لا معنى للعناد إذا كان سيكلفك حياتك ..»

وسعل سعلة مصطنعة ، ورأيت وجوهًا ثلاثة مكفهرة ، وسياطًا ترتفع ثم تهوى على رأسي وجسدي ووجهي ، أخذت أتلوى وأنا أضع يدي فوق عيني .. وأستغيث ..

قال الضابط وهو يهم بمغادرة المكان : «ستظل تحت هذا الوابل حتى تنفك عقدة لسانك ..»

فجريت نحوه وقد أشعلت السياط في جسدي ما يشبه النيران وأمسكت بذراعه قائلًا : « انتظر .. سأقول كل ما تريد »

ابتسم ، وعاد إلى مكتبه في الهواء الطلق ، والضوء الباهر ، وأشار إلى الشياطين الثلاثة ، فتراجعوا ، وقلت والدموع في عيني : « إما أن أخترع الأحداث ، وإما أن تصدقوني ..»

ضحك ضحكة داعرة وقال : « فلتخترع لنا شيئًا مقنعًا ..»

أخذت أشد شعري في غيظ وأقول : «لكني لا أستطيع .. أأرمي الخليفة بما هو منه براء ؟

– «حسنًا .. لا تخترع .. قل لنا تصوراتك عن الموضوع بصدق .»

قلت دون تلعثم : « الرجل هو عمر بن الخطاب ، وقد أحياه الله القادر ، وجاء لإصلاح ما فسد من أمر المسلمين خاصة والناس عامة .. لم يأت ليدبر مؤامرة ضد إسرائيل ..»

قال الضابط في خبث : «ولماذا لم ينزل إلا في القدس بالذات ؟ »

– «لأنه زارها في حياته .. وأقام له مسجدًا قرب كنيسة القيامة بعد أن رفض الصلاة في الكنيسة احترامًا لحرية العقائد .. لا أدري كيف أفسر الأمر .. هكذا اقتضت مشيئة الله »

وعاد الضابط إلى ضحكته الداعرة : «كان في الإمكان أن ينزل في سوريا .. العراق .. مصر .. لبنان .. المغرب العربي .. أندونيسيا .. باكستان أم أنه خاف أن يتهم في أية دولة بالجاسوسية أو التآمر ضد نظام الحكم ؟ أليس الأمر مثيرًا للدهشة ؟ »

قلت : «مثير .. فعلًا ..»

– « إذن فنحن على حق إذ نشك ..»

– « وأنا على حق إذ أجهل ..»

– «تستدرجني ؟ هه »

قلت : « استبد بي الظمأ ..»

مال نحوي في غيظ : «فلتشرب من خمر الجنة .. هناك لا يصيبكم ظمأ ولا مخمصة .. قل لي : مخمصة ، ما معناها ؟ »

– « الجوع ..»

– « عفارم ..»

وانتزع الضابط قداحته وسجائره بعصبية وقال لرجاله : « خذوه إلى الزنزانة .. لا تعطوه جرعة ماء واحدة .»

وارتميت في زنزانتي ظامئًا متألمًا حزينًا ، تكاد تخنقني الوساوس والهموم ، إن دائرة الخطر تضيق حولنا يومًا بعد يوم ، والأيدي القذرة تحاول محاصرة الخليفة ، وخنق آماله ، لن تتركه يؤدي رسالته ، هذا ما قلته من قبل ، لكن أحدًا لم يكترث لقولي ، إنهم يراقبون مرافقيه ، ويعرضون صوره في كل جميع

الأنحاء ، راصدين المكافآت الكبرى لمن يدلي بأية بيانات تكشف عن شخصيته ، لن يكفوا عن العمل والتآمر ، ترى ماذا يفعلون به الآن في المستشفى ؟ وأية مكائد جديدة ينصبونها حوله ؟ لو مزقوني إربًا إربًا ما تخليت عنه ، إنه فرصة العمر في الخلاص الأكبر ، هو ما كنت أبحث عنه ، يجيب على أعوص القضايا دون تلعثم ، وتفيض كلماته كالنبع الصافي ، وتشع أفكاره ثقة ويقينًا ، لو كان معه عشرة آلاف رجل من المخلصين لاستطاع أن يقف بنا على أعقاب فجر رائع ..

في اليوم التالي فتح الضابط الزنزانة ، ورمى إلي بصحيفة الصباح ، وقال : « انظر ماذا فعل الخليفة الذي أتى لكم بالهداية والخلاص ؟ »

دق قلبي ، وارتعشت مفاصلي ، وزاغت نظراتي ، لكني تماسكت ، وتلقفت الجريدة ، وحاولت أن أجري على سطورها مستطلعًا ، كانت هناك صورة للخليفة ولراشيل ..

صرخت محتدًا : « إنها خُدْعة سافلة ..»

– « هذا ما حدث ..»

– « لا يمكن .. أنا أعرفه ، تلك قصة مختلفة من أساسها .. هل يعقل أن يتصرف أمير المؤمنين كفتى مراهق ، فيختطف قبلة ، أو يقوم بحركة شائنة!؟ أنتم تكذبون .. رأيته يصفعها

عندما حاولت الاقتراب منه .. ضربها بعصاه .. كان هذا أمامي ، وبه محضر في الشرطة .. والصورة الموجودة على صدر الصحيفة هي الأخرى خُدْعة ... تريدون أن تلوثوا سمعة الرجل ، وتحطوا من هيبته ..»

ثم استطردت في تشفٍّ وعناد : «لن يصدقكم الناس ، هم يعرفونكم .. وأنت تعلم أن ما كُتب هنا كذب في كذب ..»

قال الضابط في سخرية : «لقد حطَّم نفسه قبل أن نفكر في تحطيمه ..»

– «مستحيل .. محاولاتكم قرابة أربعة عشر قرنًا من الزمان باءت بالفشل ... لم تستطيعوا أن تطفئوا نور الله في قلوبنا . اختطفت قطعة من الأرض .. من ملايين الأميال الواسعة في شتى أنحاء الدنيا .. لكن النور باق .»

وأخذت أرتل على مسمع منه : «بسم الله الرحمن الرحيم .. يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون » .. صدق الله العظيم ..»

ركلني في عنف وقال : «دعوه يلهث كالكلب .. لا تجودوا عليه بقطرة ماء حتى يلعق أحذيتنا .. إلا إذا اختار نعيم الجنة ها .. هاها ...»



الفصل ١٤

اختفت «راشيل»، واختفيت أنا الآخر، وعلمت فيما بعد عن طريق الدكتور عبد الوهاب، أن الخليفة دهش لهذا الأمر، وبدا عليه قلق ظاهر، ومع ذلك فقد ظن أن عذرًا طارئًا، أو أمرًا هامًا قد شغلنا بعض الوقت، وكان يصرح من آن لآخر أن الأوضاع لا توحي بالثقة، وأنه لا يأمن شر هؤلاء الصهيونيين، لكن عبد الوهاب لم يجد بدًا من أن يشرح له سر اختفائي المفاجيء، فقال ممتعضًا: «هذا تصرف شائن من السلطات، هم كذلك من قديم الزمان، إذا مكن لهم الله في الأرض عاثوا فيها فسادًا، وأهدروا قيم الآخرين وحرياتهم.. أنا لا أخاف أن أصرح برأيي هذا، يجب أن يعرفوه.. المهم كيف نواجه هذا الظلم ..»

قال عبد الوهاب: «للجدران آذان يا أمير المؤمنين ..»

تجاهل تعليقي وصاح: «فليتحرك المسلمون في شتى أنحاء الأرض»

– «دون ذلك أهوال وصعاب ..»

أخذ يتمتم ببضع كلمات من القرآن: «يا أيها الذين آمنوا ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ صدق الله العظيم ..»

والتفت إليّ قائلًا: «الجهاد فرض ..»

– «أصول السياسة الحديثة يا أمير المؤمنين تقتضي التأني الزائد.. حتى نكمل العدة ونكتسب تأييد الرأي العام العالمي ..»

قال في أسى: «الرأي العام!! يا لها من مأساة.. لقد عرفت.. لا تنضح المستنقعات إلا بالعفن.. والجاهلية الضارية لا تلد إلا أحكامًا متحيزة، ولا تغرس إلا الرذائل.. دائرة مفرغة، .. أنت تستعد، وعدوك يستعد؟.. أنت تحاول اكتساب الرأي العام، وعدوك يفعل نفس الشيء، النصر الذي ناله يقلب ميزان العدل... الحق في جانب الأقوياء.. استمع إليّ جيدًا.. الكفر ملة واحدة.. ما قامت حرب في الدنيا، إلا وكان أحد الفريقين أقوى عسكريًا من الآخر.. التفوق العسكري وحده لم يكن العامل الحاسم.. ما أكثر الذين انتصروا وهم أقل عددًا وعدة.. لأنهم كانوا أكثر إيمانًا ..»

طأطأ عبد الوهاب رأسه قائلًا: «نحن لا نحارب إسرائيل وحدها ..»

– «أتعني أنه لا مفر من الانتظار.. لقد طال.. ذلك يعني الهزيمة والموت.. لو اتحد المسلمون جميعًا لهز هديرهم زبانية الظلم والطغيان ..»

تململ في سريره، واستطرد: «القضية الأولى ليست السلاح والرأي العام»

– «ماذا إذن؟»

- « أن يوجد الفرد المسلم .. ثم الجيش المسلم .. ليس هذا مجرد وجهة نظر شخصية .. إنه بديهة في ظل مبادئ الدين »

ودق جرس التليفون ، فأسرع إليه عبد الوهاب ، كانت المتحدثة راشيل ، وكانت تلح في طلب الخليفة على عجل ، لم يرتح عبد الوهاب لذلك ، فطلب منها أن تترك الرجل وشأنه ، وتنصرف هي إلى شأنها ، لقد أحاطت الشكوك بها ، ولم يعد المرافقون للخليفة راغبين في الاستمرار بعلاقتهم بها .

- « أستحلفك بالله . الأمر جد هام »

أمسك الخليفة بالتليفون ، وأخذ يستمع إليها : « لا تصدق ما نشرته الصحف »

- « أعلم أن بضاعتهم زيف وكذب »

- « صحف اليوم ، أقرأتها ؟ »

- « لا .. »

- « حسنًا .. إذا أتوا إليك بصحيفة ، فابصق عليها ودسها بنعالك .. »

قال الخليفة في دهشة : « لماذا ؟ إنني حريص أن أعرف كل ما يمكن معرفته ، لعلي أبلغ مبلغًا من العلم يساعدني في إصدار أحكامي .. »

- « أرجوك .. »

- « وماذا يضيرك »

- « إنهم يهدفون إلى تحطيم ما بيننا من علاقة .. »

- « إن العلاقة الأخوية الأصيلة لا تقضى عليها أكاذيب أو أراجيف .. »

ثم وضع السماعة وهو يرقب التليفون بدهشة : « أين راشيل الآن .. »

- « في القدس الجديدة .. »

- « هذه آلة عجيبة لنقل المسافات .. سبحان المُنعم .. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ .. صدق الله العظيم ..

لم يعد هناك مفر من أن يسرد عبد الوهاب على أسماع الخليفة ما نشرته الصحف ، لا يمكن إخفاء شيء في هذه الأيام ، الأنباء الكاذبة وغير الكاذبة تمرح في المجتمع دون عوائق ، أنها كالهواء الذي نتنفسه .. عالم فضائحه يرددها الناس كأحلى نشيد ، ويصنعون من الأمور التافهة حكايات طويلة يوشونها بالأكاذيب والحيل والمفاجآت حتى تشد الأسماع ، وتجلب الأمتاع ، شيء كالمخدرات .. تشبع القلوب المريضة ..

وعول عبد الوهاب على أن يخبر الخليفة بكل شيء .. وبعد أن سمع الخليفة قصة ما نشرته الصحف ، ابتسم في مرارة ، ثم ضرب كفًا بكف .. وقال : « عجائب .. »

- « لا تحزن يا أمير المؤمنين .. نوع آخر من الحرب الخبيثة .. »

نظر الخليفة إلى السقف الأبيض المضيء وقال: «أتتذكر «حديث الإفك» ؟»

– «لقد ورد ذكره في القرآن .. كان عن عائشة أم المؤمنين حينما رماها المنافقون والحاقدون والمخدوعون بالإثم وهي منه براء ..»

وهمس الخليفة: «كانت أيامًا رهيبة، عانى الرسول بسببها الكثير .. إنه النبي .. وقائد الأمة، ومثلها الأعلى، والطعن في زوجه بين العرب أمر مهول .. لهذا تولت العناية الإلهية الدفاع عن الشرفاء المؤمنين، وأخذ الآثمين بكل شدة ..»

– (أجل .. كانت جريمة كبرى في حق عائشة»

– «والرسول أولًا .. واليوم يأتون بحديث إفك جديد يريدون به هزيمتي وتحطيمي ..»

وعاد عمر ينظر إلى السقف ويقول: «أتتذكر شاعر اليهود كعب بن الأشرف ؟»

– «أذكر .. كان يشبب بنساء النبي، ويترنم بقصائد العهر والافتراء في طول الجزيرة وعرضها ..»

– «وكان عقابه الموت ..»

– «أتذكر حيي بن أخطب زعيم اليهود»

– «أجل ..»

– «أتعلم أنه سجد لأصنام قريش، ليؤكد لهم أن دينهم حق ودين محمد باطل، وهو يهودي صاحب كتاب يعلم يقينًا أن عبادة الأصنام حماقة، واحتقار للعقل البشري ..»

– «نعم .. أذكر ..»

تنهد الخليفة في حسرة: «هم دائمًا هكذا. يلجئون إلى أخس الحيل وأدناها أنا أعرفهم من قديم .. المعركة كانت وما زالت عنيفة .. يضرب العدو فيها بمختلف الأسلحة .. حديد .. وخبث وأكاذيب ..»

قال عبد الوهاب: «نسميها الحرب النفسية ..»

ضحك الخليفة قائلًا: «برعتم في ابتكار الأسماء والمصطلحات ..»

وصمت الخليفة برهة ثم قال: «طريقة ماهرة للقتل دون إراقة دم .. حسنًا .. لسوف أواجه الناس بالحقيقة، وأتحدى سفالتهم بصدق كلماتي وإيماني .. وأصفهم بالدليل القاطع ..»

همس عبد الوهاب: «راشيل أداة قذرة .. قد تنحاز لهم في أي وقت، فتثبت علينا إدانة نحن منها أبرياء ..»

– «إني واثق أنها لن تفعلها ..»

– «هي منهم ..»

– «لكنها انتسبت لمعنى جديد .. واغتسلت من أحزانها القديمة ..»

لم تستطع كلمات الخليفة أن تبدد شكوك عبد الوهاب ، كانت الأحداث تجري ، ولم يكن الخليفة يعلم أن السلطات الصهيونية قد أصدرت أوامرها للمستشفى ألا تسمح للمريض بالخروج إذا ما شفي إلا بأمر كتابي ، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للضرر ..

قال عبد الوهاب : « المستشفى محاصر برجالهم ، وأنت سجين الآن ..»

– « لا تكترث .. عندما تخبرني أن الشفاء تم ، فسأخرج ولن يستطيع أحد أن يعترضني ..»

– « أنت تُبَسِّطُ الأمور ، وهذا يزعجني ..»

– « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ..»

– «لكننا نريدك أن تعيش .. أن تبقى ..»

– « أمنيات طائشة .. الأمر بيد الله وحده .. وهو العليم الخبير ..»

ابتسم الخليفة في سعادة ، وقال : «نحن سجناء .. لكن الكلمات تسري بين الناس . فيرددونها ويحفظونها عن ظهر قلب .. وتحدث فيهم تأثيرات عجيبة .. إن لله جنودًا لا ترونهم .. لسوف أخرج بإذن الله في الوقت المناسب ..»

– « وإلى أين تسير ..؟ »

– « إلى بيت من بيوت الله .. سأعتكف في أحد المساجد .. أو ربما أبحث عن عمل أرتزق منه .. ليس من مصلحتهم أن

يتخلصوا مني الآن .. إني أعرف الطريقة التي ينوون تنفيذها .. هم يعتقدون أنني لا أحمل سلاحًا من حديد ، سلاحي الكلمة التي توقظ النيام ، وتحرق الفساد .. هم الآن يحاولون إثارة الناس ضدي ، وتلويث سمعتي .. حتى يكون القضاء علي بأيدي الذين آمنوا بي ، وقبلوا أقدامي .. وذرفوا الدموع ندمًا .. هم خبثاء يا طبيب .. سلاحي الكلمة الصادقة ، وسلاحهم الكذب والافتراء .. فلمن يكون النصر ؟

لمعت دمعة في عيني عبد الوهاب : «سبحان الله .. تلك كرامة من الكرامات .. أنت تعرف مخططهم جيدًا ..»

– «سنوات طويلة والرسول يتصدى لألاعيبهم .. كان صلى الله عليه وسلم يفتح عيوننا على نذالتهم وغدرهم .. كان يعرفها قبل أن تحدث ..»

وهتف عبد الوهاب : «يا أمير المؤمنين ، دع هذه الأرض ونحن معك ، ولننطلق إلى بلادٍ أخرى نجد فيها الأمان والحرية .. إنها هجرة ..»

قال الخليفة : «لم أقرر ذلك بعد ..»

ثم التفت إليّ باسمًا : «يا طبيب عندما ينزل الوباء بلدًا ، أتعالج مرضاه في قلب المعركة .. أم تفر – وأنت الطبيب – إلى أرض بعيدة ..»

أخذت أهز رأسي صامتًا ..



الفصل ١٥

تفجر حادث راشيل في أوساط القدس كالقنبلة الشديدة الانفجار، أثار ضجيجًا وغبارًا كثيفًا، ونزاعًا لاتخفت حدته، قال فدائي مستتر: راشيل عميلة للمخابرات الصهيونية والمخابرات المركزية الأمريكية، ولقد جُنِّدت لغواية الخليفة وفتنته حتى تعطله عن أداء رسالته، وتضع في طريقه العراقيل، بتشويه تاريخه ودينه. وقال جندي من مشوهي الحرب: إن حيل الإسرائيليين خبيثة، فقد عمدوا إلى حقن الخليفة بعقار مخدر أو أعطوه عقار الهلوسة ل.س.د فأثروا على تفكيره ومشاعره، وقال صحفي مسرّح، ومحدث في الإذاعة قديم رفض التعاون مع الإسرائيليين: « أقسم أن القصة مخترعة من أساسها، ولا صحة لوقائعها إطلاقًا، لقد كتبوها في عديد من الصحف بنفس الأسلوب، ونفس الترتيب، وكأنها بيان صادر عن جلسة من جلسات المفاوضات ..»، وقال واحد من العلماء المسلمين الرسميين:

« ابن آدم خطاء، وأحب الخطائين إلى الله التوابون ..» أما أحد القساوسة في كنيسة القيامة، فقد علق: « أنا أحترم عمر، ولا أشك في نظافته، إنني لا أتفق معه في العقيدة، لكنه إنسان كبير، رفض طلب البطريق حينما كان بالكنيسة وقت الأذان، أبى

أن يصلي بها احترامًا لمشاعرنا، وخرج ليصلي خارجها .. كان شديدًا في تسامح.. وكان يعامل المرأة طوال تاريخه بحزم وعدل .. لم يفكر في يوم من الأيام أن يبيع آخرته، أو يفرط في دينه .. شيء متفق عليه .. كذب الصحف لا يحتاج لتفنيد لكل ذي عينين ..»

وعلمت فيما بعد أن مدير المخابرات استدعى راشيل قبل أن تشرع الصحف في نشر مباذلها، وأفهمها أن المخابرات تنوي توجيه ضربة قاصمة لسمعة الخليفة، وشرح لها ما سوف تنشره الصحف عن واقعة الاعتداء المفتعلة، فصاحت محتجة: « إنني أرفض هذا التصرف »

– « لماذا ؟! »

– « لأنه يتلف كل شيء في مخططنا .»

ابتسم في مكر وقال: «ليس لك حق الاعتراض، إن « أدمغة كبيرة » تفكر في الأمر، وقد أقرت هذه السياسة، وليس لنا حق تفنيدها .. ما عليك إلا التنفيذ يا راشيل ..»

صرخت مهتاجة: « أنا لست آلة ..»

– « أنتِ جندي في المعركة ..»

– « هذا لعب بالألفاظ .»

– « أنت يا راشيل حلقة في جهاز منظم دقيق .. وأنا كذلك .. السياسة العليا للدولة هي التي تهيمن علينا جميعًا ..»

قالت وهي تجمع أشياءها وتهم بالوقوف : «إني أنسحب ..»

وثب نحوها ، ثم أمسك بيدها ، وأجلسها في لطف مفتعل : «هل جننت ؟»

– «أنا لا أؤدي عملًا كهذا .. لا أستطيع ..»

قهقه ساخرًا : «راشيل .. إنني أعرفك .. أتحاولين اللعب بأعصابنا!!»

ثم تنهد قائلًا : «كل ما نطلبه منك هو أن تدلي بتصريحات للصحف والإذاعة والتليفزيون تؤكدين فيها الواقعة»

صرخت محتدة : «لن أفعل»

– «هذا تصرف غريب .. أأنت مغرورة أم مخدوعة ؟ ومع ذلك فإنه يمكننا الاستغناء عنك نهائيًا .. لسوف نكتب للصحف تصريحات منتحلة ونعزوها إليك ..»

هتفت : «هذه خسة ..»

– «إنها الحرب يا فتاة .. تذكري شقاء السنين الطويلة»

– «سوف أعلن الحقيقة على الملأ ، وأكشف كذبكم»

– «عبثًا تفكرين .. ستكونين محددة الإقامة .. حولك الحراس .»

أخذت راشيل تسب وتلعن ، وتضرب بقبضتها الواهنة صدر الضابط الكبير ، وتعلن احتقارها واشمئزازها ، والضابط يبتسم في برود غريب ، ثم يلوي ذراعها ، ويجلسها مرة ثانية على

المقعد ، ويقول بهدوئه المثير : «تلك بداية الخلاص منه .. لسوف نتبعها بخطوات أخرى .. هل يخطر ببالك أننا سنشيع عنه أنه «عميل صهيوني» يخدم أهدافنا المشتركة مع أمريكا!! ولك أن تقدري رد الفعل العنيف بين العرب والمسلمين قاطبة .. سيكون ذلك قنبلة الموسم .. ولكي نحبك الخطة ، فسوف نغرقه بالهدايا والاحترام ، وسيقوم أحد كبرائنا بزيارته سرًا ، لكن الزيارة السرية سيعرفها الناس بطريقتنا الخاصة ، كي تكون أشد إثارة وتأثيرًا ..»

هدرت : «وقاحة ..»

ضحك وأردف : «ولسوف ننشر تصريحات محرفة عن لسانه تتعلق بالدين والسياسة ، سنجعله داعية للسلام بين العرب وإسرائيل ، ولسوف يكذب بنفسه القصة التاريخية القديمة ألا وهي طرد اليهود من الجزيرة العربية ، لتناسب جو الصلح المنشود .. الأخطر من هذا كله .. إعلانه عن أن «المصحف» المطبوع في إسرائيل ، الذي حاربه المسلمون لما فيه من تحريف ، إعلانه أن هذا المصحف هو أصح النسخ وأدقها .. ما رأيك ؟»

قالت راشيل وجسدها يرتجف كله : «هذه المبالغات والأكاذيب ، ستشي بخبثكم ..»

– «هذا رسم خبراء مدربين يا بلهاء .. هذا علم .. اشترك في إخراجه فلاسفة .. وعلماء نفس .. ومخابرات .. وأحبار ...»

ثم ضيق عينيه ونظر إلى راشيل في غضب : «لكن لماذا تدافعين عن الرجل بكل هذه الحماسة والحرارة ..»

– «لأنه مظلوم ..»

– «لكنه خطر يتهددنا ..»

– «أوقفوا الخطر بإجراء قانوني أو أخلاقي ..»

– «الأخلاق تفسد السياسة .. والقانون بطيء متردد .. نحن في حرب يا راشيل ..»

– «يا لَفُجْرِكُمْ ..»

ضحك ساخرًا : «أنت تحلمين بليلة بين ذراعيه ..»

– «لقد تطهرت من رغباتي الآثمة ..»

– «مستحيل .. أنت امرأة ..»

– «اللعنة عليكم جميعًا ..»

نفخ في ملل وازدراء ثم قال : «فكري في الأمر .. أنت أملنا الأكبر في التنفيذ ، لقد بذلنا جهدًا أكبر في صنعك وإعدادك .. إذا خسرناك خسرنا الكثير .. تذكري أن إخوة لك يموتون في ميدان القتال كل يوم من أجل أجيالنا .. وحيث يموتون لا توجد أخلاق أو قوانين .. يجودون بدمائهم ، وتأبين أنت أن تجودي ببضع كلمات .. الكلمات في مواجهة الدم لا شيء ..»

وساد الصمت ، كانت راشيل تفكر ، إنها لا تريد أن تبتعد أن الخليفة ، وفي نفس الوقت تريد حمايته ، فلم لا تعامل أبناء جلدتها بنفس الأسلوب الذي يعاملون به الآخرين ؟ إن لتصرفها

هذا ما يبرره .. قال لها الخليفة ذات مرة : شرف الأسلوب مرتبط بشرف الغاية .. الغايات العظمى لا يبلغها الشرفاء إلا بالوسائل الطاهرة .. معذرة يا خليفة . عدوي يحمل مدفعًا رشاشًا ، ولن أستطيع مواجهته بصفعة هزيلة .. سأواجهه بنفس سلاحه .. لا مفر .. وسددت راشيل إلى رجل المخابرات نظرات لعوب مدربة وقالت : «وكم ستدفعون لي ؟»

– «ما يوازي مرتب أسرتك كلها عشر سنوات ..»

– «والمقدم ؟»

– «خمسة وعشرون بالمائة»

– «على شرط ..»

– «طوع أمرك يا راشيل .. يا نجمة المجتمع الإسرائيلي .!»

قالت وهي تخفض رأسها في حيرة : «لن أصرح بشيء لأي صحفي ..»

– «لا تقلقي .. سنتولى أمر الصحف ..»

– «والآن دعني أذهب إليه ..»

– «حذار أن تكذبي ما ننشره ..»

– «لن ألتقي بأي صحفي .. أريد أن أذهب إلى الخليفة ..»

أخبرها بأن تؤجل ذلك إلى حين ، ثم اصطحبها معه إلى المعتقل الذي أنزل به في اليوم التالي ، ويبدو أن المخابرات قد رأت أنه من الصالح إطلاق سراحي ، كي أعود لملازمة الخليفة ، وخاصة أنهم لم يجدوا لدي جديدًا برغم ما بذلوه من جهد ، وما

نالني من تعذيب ، وكان لابد من تمثيل مسرحية في محاولة لإخفاء الحقيقة عني ، فقد استدعيت للتحقيق آخر مرة ، وفوجئت «براشيل» ، ملقاة على الأرض في إهمال ومقيدة بالحبال ، والضابط يصب عليها شتائمه ..

حينما وصلت قال الضابط : «أنتما مفتاح السر ، وترفضان أن ترشدانا إلى الحقيقة .. لسوف نطلق سراحكما ، على أمل أن تتدبروا الأمر .. وستكون عيوننا وراءكما في كل مكان ..»

لم يكن الضابط ساذجًا ، بحيث يطلب منا ذلك ونحن متجاوران ، كان يريد أن يوحي إلينا بأن القضية ليست قضية عربي وإسرائيلي ، إنها قضية أمن ، والأمن يتخذ إجراءات ضد الجميع سواء بسواء .. لا فرق بيني وبين راشيل .. إبراز للعدالة الصهيونية!!

ولقد دهشت أيما دهشة حينما وجدت «راشيل» بعد أن غادرنا المعتقل ، ونزلنا في الطريق العام ، تبكي وتحاول نفي ما نشرته الصحف نفيًا قاطعًا ، والأعجب من هذا كله ، أنها روت لي كل ما جرى في مبنى المخابرات ، والمخطط الذي يدبرونه للخليفة ..

ووقفت مذهولًا أمام هذه الفتاة اللغز .. أأحكم لها أم عليها ؟

وقالت راشيل : «لن أتخلى عن ديني الجديد»

– «إنه التكاليف والأعباء .. والتضحيات الكبار ..»

– «أعرف .. لقد رأيت وسمعت ..»

ثم صمتت برهة وقالت : «أتعرف أن الإسلام حق ..»

– «كيف ؟»

– «ما رأيته في المخابرات لم يكن أقل تأثيرًا في نفسي من كلمات عمر .. حقدهم وانحرافهم برزا لي على وجه مدير المخابرات .. لقد كان العار مجسمًا .. اذكر وجه عمر .. ثم أذكر ذلك الوجه القبيح الآخر .. فيزداد إيماني بالإسلام ..»

ثم مدت يدها إليّ فجأة وقالت : «فلنتعاهد على حماية الخليفة من غدرهم ، ولنكن إخوة صادقين متحابين ..»

– «أعاهدك ..»

لست أدري ما الذي قذف بكلمات الدكتور عبد الوهاب يوم رأى عمر لأول مرة ، لقد تذكرتها الآن ، وأخذت أرددها بصوت خفيض : « ... كان الطريق وعرًا ، متوهجًا بالنار والعذاب والقلق .. اتخذت العقل وحده رفيقي .. شعرت أنني فقدت جانبًا رائعًا لا يدركه إلا المخلصون الباحثون عن نور الحقيقة .. الخرائط في يدي وأنا أسير .. وأسير .. حتى سقطت إعياءً ، وعيناي معلقتان بالسماء .. جرعة ماء .. أين ؟ أبحث عن دليل .. لا أجد .. سمعته في البرية ينادي : «من أعرض عن ذكري فإنه له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى» .. وعرفت الطريق يا ابن الخطاب .. البصر والبصيرة .. الروح والمادة .. العقل والعاطفة .. الوجود الحق بكماله .. ... أنا أبحث عنك من قديم ...»

ونظرت إلي راشيل، كانت الدموع تتألق خلف الشال الأسود ..

الفصل ١٦

كان غريبًا ألا يكون للأكذوبة التي روجت لها الصحافة إلا صدى هزيلًا، وقد أزعج هذا سلطات الأمن أيما إزعاج، وبذر في نفوسهم قلقًا مكتومًا، ولقد صرخت «راشيل» في إحدى مدارس البنات الثانوية في القدس بأن القصة التي تزعم الاعتداء عليها قصة مختلقة من أساسها، وأن أوهامًا مريضة حاقدة قد نسجت خيوطها من محض الخيال والافتراء، وأكدت للفتيات أن عمر على حق، وأنه من رجال الله الأتقياء الشرفاء، وأنه يحمل في قلبه حبًا كبيرًا للناس، ويتصرف عن يقين وإيمان، ويمشي على هدى ونور، وأن الله قد وهبه الكثير من الذكاء والخلق العظيم، ولديه قدرة خارقة على الإقناع، وهي لم تر في حياتها رجلًا مثله، وتعتقد اعتقادًا جازمًا بأن مثله هو الكفيل بإنقاذ البشر مما يعانونه من بلبلة وشقاء وحيرة، وروت لهم قصة إسلامها من البداية للنهاية، والحوار الذي كان يدور بينها وبين الخليفة، فتركت في نفوسهن انفعالًا ملحوظًا، وشدت انتباه الجميع إليها.

وقالت إحدى الطالبات: «لكنه منحاز للعرب»

قالت راشيل : «يا أخواتي ، هو منحاز للحق ، ويكره الظلم في شتى صوره وألوانه ، بصرف النظر عن شخصية الظالم . «تلك أخلاقه ..»

– « إنه يريد أن يعود بالمرأة إلى عصور « الحريم المظلمة » .

ردت راشيل في ثقة : « المرأة في نظره إنسانة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، لكنه يرفض تبذلها وانحرافها ، ولا يعتبر ذلك تحررًا ، وإنما هو ضرب من الإغراء والإفساد والحيوانية ، يضر بالفرد ، ويؤذي سلامة المجتمع . بل ويحط من شأن المرأة نفسها .. المرأة في عصور الإسلام الأولى كانت محاربة .. ومضمدة للجراح .. وشاعرة .. ومتفقهة في الدين ، تروى الحديث ، وتشارك في الأحداث ، ويؤخذ رأيها ..»

وقالت طالبة ثالثة : « واضح أنه متمسك بالنظم التي سادت العصور القديمة ، والحقيقة أن ما يصلح لزمان مضى ، لا يصلح لزماننا هذا ..»

انطلقت راشيل قائلة : « هذه دعوى ظاهرها الحق ، وباطنها الباطل .. إنه لا يتمسك بنظم .. بل بمبادىء وقيم .. فالعدل ليس فيه قديم وحديث . وكذلك الحرية والإخاء والمحبة .. تلك القيم هي الأريج الذي ينعش قلوب البشر على حقب العصور والأزمان ، وهي الدرع الواقي لكرامة الإنسان في كل وقت ..»

وقالت فتاة أبوها عضو بارز في حزب العمال الإسرائيلي : « هذا عصر العلم ، لا عصر الدين ..»

قالت راشيل في شيء كثير من الانفعال : « يقول الخليفة ، ليس في ديننا خصام بين الدين والعلم ؛ لأن منهج الإسلام منهج عقلي ، يلتزم بالإقناع والبرهان والتأمل وينسجم مع الفطرة السليمة ..قضية الخصام بين الدين والعلم قضية حديثة من صنع أوروبا حينما اصطدم العلماء هناك مع رجال الدين من أجل النظريات والمكتشفات الجديدة .. هل فيكن من تنكر أن علماء الإسلام منذ قرون أسسوا علوم التجربة والمشاهدة في مجال الفلك والطبيعيات والكيمياء والطب .. الرازي .. ابن سينا .. بن الهيثم .. ابن النفيس .. ابن حيان .. ابن خلدون .. وغيرهم ..»

وقالت فتاة أخرى : « الدين يجر إلى التعصب ، والناس يجب أن يكونوا إخوة برغم اختلاف الملل والأديان والألوان ..»

ضحكت راشيل ، ونظرت إلى الفتيات باسمة : «يا أخواتي .. نحن بلا دين الآن .. هل اختفى التعصب ؟ ومع ذلك فإني أقول إن الدين الحق لا يعرف التعصب الأعمى!! المنحرفون في كل الأديان هم الذين يقعون في هذه المباءة .. ومحمد يقول ليس منا من دعا إلى عصبية .. ولا يكمل إسلام المسلم إلا إذا آمن بموسى وعيسى ومحمد وجميع الأنبياء والكتب المقدسة من قبل ، فهل فعل دين آخر مثلما فعل الإسلام!! »

وقالت فتاة تكتم ضحكاتها : « ورأيه في الحب يا راشيل ؟ »

آلمها السؤال ، وأدركت ماذا تقصد الفتاة الخبيثة ، لكنها اعتصمت بالصبر والحكمة وقالت : « الحب له جانبان حيواني وإنساني .. الأول ينظمه الزواج ، والثاني عاطفة عظمى يخفق بها قلب المؤمن لبني الإنسان .. »

ونشرت صحيفة معارضة حديث راشيل في مدرسة البنات بالكامل ، لكن الرقابة الإسرائيلية صادرت الصحيفة بإيحاء خفي من المخابرات العامة ، وكان هذا كفيلًا بأن يرفع سعر النسخة إلى عشرة أضعاف ، وكان الناس سواء؛ العرب أو الإسرائيليون يبحثون عن هذه الصحيفة في مظانها ، ويتداولونها سرًّا ، وكأنها منشورات خطيرة معادية ، أو كأنها مخدرات ممنوع بيعها ، ولم تنتظم الدراسة في هذه المدرسة في اليوم التالي والأيام الثلاثة التالية بعد ذلك اللقاء المثير ، فقد احتدم الجدل ، واصطخبت الآراء ، وأفلت الزمام من يد الإدارة .. وحدث أمر كان له دوي هائل في أوساط المدينة المقدسة ، فقد ذهبت عشرة فتيات منهن خمسة من اليهود ، واثنتان من المسيحيات ، ذهبن إلى المستشفى لمقابلة الخليفة ، وطلبن اعتناق مبادئه ، والتعلم على يديه ، وقد استقبلهن الخليفة راضيًا باسمًا ..

كنت أقف إلى جواره ، ومعنا « راشيل » ، والدكتور عبد الوهاب ، كان مشهدًا رائعًا ، بل كان أروع مكافأة لما عانينا

من متاعب وآلام على أيدي المخابرات الإسرائيلية ، والنجاح يحيل الآلام القديمة إلى مجرد ذكرى حبيبة ، لكن للأسف فوجئنا بعدد من رجال الشرطة ومعهم أولياء أمور الطالبات ، فتحطم الحلم الجميل ، وسيقت الفتيات تحت وابل من الشتائم والصفعات على بيوتهن ، لكن دموعهن الغزيرة كانت تنبت أملًا لا يزوى على مر الأيام ، ولم تنشر الصحف كلمة واحدة عن هذا التصرف في اليوم التالي ، لكن الأحزاب الإسرائيلية دعت أعضاءها لاجتماعات عاجلة ، كما صدر أمر بتحديد إقامة راشيل ، وجاء بعض الضباط الجدد – منهم « إيلي » – ليحرسوا الخليفة ، ويلازموه بعيون يقظة .

وقال لهم الخليفة : « إنني أبحث عن شيء .. »

قال إيلي : « ماذا ؟ »

– « أين الحرية في عالمكم ؟ »

– « إنها شعارنا .. »

– « الشعار شيء .. والسلوك شيء آخر .. لا حرية بلا ممارسة .. تترنمون بالحرية ، وفي نفس الوقت تقفون في وجه الدعوة إلى الله ، وتعاقبون الناس إذا جرءوا على اختيار العقيدة التي تتفق وعقولهم وفطرتهم »

قال إيلي في غضب : « إنك تغرر بالفتيات الصغيرات ، وحمايتهن منك لا يضاد مفهوم الحرية .. إننا نحاصر وباء يوشك أن يدمر المدينة .. »

ابتسم الخليفة في رثاء وقال: «الفضيلة وباء، لكن خداع الفتيات تحت «الشجرة» والعبث بهن حرية وأخلاق .. يا ابن الحضارة العفنة ..». انتفض «إيلي» من شدة الغيظ، ووضع يده على مسدسه، وأخذ يصر على أسنانه، لكن زميله، جره من ذراعه قائلًا: «اعقل»

وتنهد الخليفة في حسرة: «لو كان لي جيش قادر لخرجت لتأديب أعداء الفضيلة والحرية، ولفتح الطريق أمام الكلمة الشريفة يا جلادي الحكمة .. هذا ما حدث أيام الرسول .. عذبوه .. اضطهدوه .. وقسوا على صحابته .. وخاصة الضعفاء منهم والعبيد .. وطردوهم .. وسلبوا أموالهم .. فحملنا السلاح دفاعًا عن النفس والعرض وحرية الناس في أن يعتقدوا ما شاءوا .. كنا نزيل أسوار السجون التي بناها السادة والملوك لقهر البشر .. ومع ذلك فقد جاء من يزعم أننا نشرنا الإسلام بقوة السلاح .. وهم يعلمون أن شعارنا: «لا إكراه في الدين ..»

رماه إيلي بنظرة حارقة: «أمن الدولة فوق كل اعتبار»

ابتسم الخليفة قائلًا: «وما الدولة؟ مجموعة الأفراد .. وعندما يشقى هؤلاء فستكون الدولة كلها شقية تعسة .. لكن الدولة في الحقيقة حسب تصوركم هي الحاكمون وأهواؤهم»

تصبب «إيلي» عرقًا وأخذ يقول: «نحن نعرف طريقنا جيدًا .. لو كان في دينكم خير لما كان المسلمون في هذه الأيام أول الشعوب وأكثرها رجعية وضعفًا ..»

قال الخليفة في نبرة وأسى: «أنت على شيء من الصواب، لكن، هل هم مسلمون حقًا؟! لو تمثلوا الإسلام، وساروا على نهجه لتحول الضعف إلى قوة، والذل على عزة .. العيب عيب الرجال وليس عيب المبادئ ..»

وكز إيلي على أسنانه مغتاظًا: «تفلسفون خيبتكم، كل ما أعرفه أننا في أوج العلا، وأنتم في الحضيض ..»

هدر الخليفة: «أيها الخنزير .. «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» إن أية قوة غاشمة، لن تستطيع أن تطمر النور الإلهي إلى الأبد ..»

اقترب «إيلي» من الخليفة، وعلى وجهه تعبير الشماتة الصارخ: «لن ترى راشيل بعد اليوم»

أشرق وجه الخليفة بالسعادة وتمتم: «هذا أمر لا قيمة له، لم تعد راشيل في حاجة إليّ، إن معها الله، وهو القوي المتين، أتفهم هذه الكلمات. كان «بلال» وحده .. وكانت هناك امرأة يقال لها «سمية» .. وياسر .. وعمار .. كانوا وحدهم وسط صخب الكفر وحشوده .. إن قريشًا بكل ما تملك من مال وقوة وحقد لم تستطع أن تزلزل إيمان أحد منهم .. أتفهم؟ لم تعد راشيل في حاجة إلى أحد بعد أن استغنت بالله عني وعنكم ..»

سدد «إيلي» إلى الخليفة نظرات ذئب شرس، وأخذ يتحرك هنا وهناك في عصبية، ثم يتوقف ويعود للحركة، وفجأة قال للخليفة: «أنت تشتهيها ..»

- «أنت تقيس الأمور بموازينك الخاطئة ..»

- «بل تشتهيها ..»

يريد أن يثير الخليفة، ويشعل غضبه، قال الخليفة: «ما جئت لدنيا أنهل من متعها .. عناق الأرواح لذة أبدية لا تزول .. والحب الطاهر أعذب لحن تعزفه القلوب .. أتفهم ذلك يا إيلي .. لو أردت الزواج منها لتم ذلك على الفور .. لكن الرائد لا يكذب أهله، وغايتي الله .. لم تتعلق نفسي بشيء من الدنيا ..»

ونظر «إيلي» إلى معصمه، وقال في تشفٍ:

- «لقد سجلت حديثك كله، ولسوف يدينك هذا الكلام، ويحملك إلى حبل المشنقة.».

ضحك الخليفة ضحكة خفيفة: «لقد جربت الموت .. وجدته رحلة رائعة إلى العالم الآخر .. وأنا أقول ما أعتقد، ومستعد لأن أكرر نفس الكلمات وأزيد عليها في أي مكان وزمان .. أريد العالم كله أن يستمع إلى كلماتي .. أتفهمون يا خراف بني إسرائيل الضالة ؟»

وعمدت المخابرات إلى تنفيذ مخططها المرسوم، حتى توهم المسلمين أن الخليفة ما هو إلا عميل صهيوني بارع، وتنسب إليه أقوالًا لم ترد على لسانه، وزعمت أنه يشجب الحركات

الفدائية الإرهابية ويستنكرها، ويدعو إلى الصلح والسلام بين دول المنطقة بما فيها إسرائيل.

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد تكونت جماعة سرية أطلقت على نفسها «جماعة أنصار الخليفة»، وأخذت تطبع المنشورات وتوزعها في كل مكان. وتلصقها على الحيطان، وتضعها في صناديق البريد، وترد فيها على الأكاذيب الإسرائيلية، وتحدثت السلطات بأن تسمح لمراسلي الصحف الأجنبية ووكالات الأنباء كي تحقق الأمر بنفسها، وتلتقي مع الخليفة، وقد أزعجت هذه الجماعة سلطات الأمن، وأتلفت مخططها، وأفسدت كل تدابيرها ..

ولم تحم الشكوك من حولي، فقد كنت مراقبًا من قبل المخابرات، ويعرفون كل تحركاتي ومقابلاتي، والحق أن الذي لعب الدور الأكبر في تنظيم هذه الجماعة هو الدكتور عبد الوهاب السعدواي، وكذلك راشيل برغم تحديد إقامتها، بل قامت للجماعة فروع لا تربطها بنا أية صلة، وسارت على نفس النهج، والغريب أن بعض الإسرائيليين أخذوا يتصرفون بطريقة لا تصدق، فقد بلغت بهم الجرأة مبلغ مناقشة الأمر في الشوارع والنوادي، وانقسموا إلى مؤيدين ومعارضين، وإن لم يتجاوز حدود المناقشات دون الأفعال الإيجابية.

ولم تكن أسرة «راشيل» آسفة لحجزها بالمنزل، لأن الاعتقاد السائد، أن أية تجربة جديدة تخوضها ابنتهم، ستكون

مادة غنية بالمزيد من الأحداث، عند كتابة المذكرات .. وكانت أسرتها تدافع عنها، لا عن اعتقاد بسلامة موقفها – فهم يرفضون إسلامها، ولا يصدقونه – ولكن حبكًا للمسرحية الشائقة، وضمانًا لنجاح الصفقة.

وعلمت مصادفة أن الدكتور «وهيب عبد الله» قد اختفى منذ خمسة أيام، وقيل أنه في أجازة دورية لأسبوعين، وعلمت أيضًا أن العلاقة العاطفية التي تربط بينه وبين الحكيمة «رجاء»، قد تعرضت في الأيام الأخيرة للانهيار، على أثر مناقشة حادة بينهما عن الخليفة ..

راودتني الشكوك من جراء اختفاء وهيب. يخيل لي أنه ناعم الملمس، ولكن له أنياب ثعبان، يكره الدين والمتدينين. أيمكن أن يكون قد بدأ يمارس نشاطًا معاديًا للخليفة بالاتفاق مع رفقائه في الحزب؟ إنه يصرح دائمًا بضرورة القضاء على التيارات الدينية، وخنق ثورتها المضادة قبل بلوغها مرحلة القدرة والتنفيذ .. يجب أن أفكر في كل احتمال .. ليتني أعرف طريقه!!



الفصل ١٧

عندما نشرت الأنباء الأولى عن ظهور أمير المؤمنين في القدس، استقبلت الصحف العربية والإسلامية النبأ بتحفظ بالغ، ففي مربعات صغيرة بالصفحات الأولى كتبوا النبأ المثير تحت العناوين التالية «يزعم أنه عمر بن الخطاب!!» «عمر في القدس!» «بدعة إسرائيلية جديدة ..» إلى غير ذلك من العبارات التي تحمل معنى السخرية والشك، وعندما كثرت الأحداث، وعمدت الصحف الإسرائيلية إلى نشر بعض التفاصيل، وأبدت وكالات الأنباء اهتمامًا بالأمر، فيما يشبه الحياد دون تعليق، لكن إحدى الصحف كتبت دراسة شاملة – في حلقات – عن خليفة المسلمين وجهاده وحروبه وحياته الخاصة والعامة، ثم صدرت بعد ذلك كتب تعالج مختلف النواحي في حياة الخليفة منذ قرون، منها كتيب صغير في سلسلة كتب الأطفال، وأعيد طبع كتاب «عبقرية عمر» للعقاد، وكذلك كتاب «الفاروق عمر» لمحمد حسين هيكل، والمسرحية الطويلة التي كتبها علي أحمد باكثير، وسارع كتاب المناسبات بإعداد حلقات للمذياع والتليفزيون، ولم يتقاعس خطباء المساجد ووعاظها، إذ أدلوا بدلوهم في الدلاء، بل إن بعض وزارات الأوقات بالدول العربية قد أعدت خطبة رصينة بهذه المناسبة، ووزعتها على الخطباء التابعين

لها ، وحرص المسئولون وهم يعدون هذه الخطب على مراعاة شتى الظروف ، وإظهار الخليفة بمظهر التقدمية والحرص على مصالح الجماهير الكادحة ، والضرب على أيدي المتنطعين أو الجامدين من رجال الدين ، وهيئات البريد هي الأخرى أخرجت بعض الطوابع التذكارية التي أُعتُبرت آية في الروعة والفن ، كما شارك الشعراء وكتاب القصة في هذه المناسبة ، فأنشدوا أرصن القصائد ، وكتبوا أبرع القصص ، وتقدمت بعض الشركات السينمائية إلى الجهات الدينية المسئولية بطلب تصريح لإخراج « فيلم » عن الخليفة ، وحتى يتمكنوا من إظهار شخصيته على الشاشة الفضية . فاشترط علماء الدين مراجعة القصة والفيلم وكذلك السيناريو والحوار . قبل العرض على الجمهور ، وقد كانت هناك فتوى قديمة لهيئة العلماء بعدم السماح بإظهار الرسول أو صحابته على الشاشة أو خشبة المسرح ، فأخذ الجدل يصطخب من جديد حول هذه النقطة ، واختلف العلماء ، وحمى النقاش بينهم ..

لكن كتاب « اليسار » قابلوا الموضوع بشيء من الاستهانة والسخرية بادىء ذي بدء ، ولم يعلقوا بغير الرسوم الكاريكاتيرية الضاحكة ، فهناك صورة لعمر يمسك بسوط ويطارد لابسات « البكيني » على الشواطىء وأخرى له وهو يجلد أحد الزناة في ميدان عام ، وثالثة وهو يقطع أيدي عصابة من اللصوص ، غير أن الموجة العارمة الآخذة في النمو والانتشار قد هزت مقاعدهم ، وزلزلت الأرض تحت أقدامهم ، فغيروا

خطتهم ، ولبسوا رداء الجد والاهتمام ، وأخذوا يكتبون عن اشتراكية الإسلام ، وعن اتجاه اليسار في العصر الأول ، لقد كتبوا عن عمر بأسلوب مستحدث مستخدمين المصطلحات الخاصة بهم ، مثل : حكم الطبقة ، وصراع الطبقات ، ودكتاتورية البروليتاريا ، والمادية الجدلية ، والعنف الثوري ، والتصفية الدموية ، وصراع المتناقضات ، والتطلعات البرجوازية ، والالتحام الجماهيري ، وتخدير الشعوب ، وتحالف الإقطاع مع سدنة الأديان ومستغليها ، خليط عجيب من المصطلحات العلمية والفلسفية ، يُدس في خضمها اسم عمر وكلمة الإسلام .

كانوا يأخذون بعض الكلمات المأثورة عن عمر ، ويكتبونها بأحرف جميلة كبيرة ، وسط مربعات أو مستطيلات أو دوائر مزخرفة ، ويعلقون عليها تعليقات تبدو عميقة موحية ، ومن أطرف ما قرأت في تلك الأثناء تعليقًا لكاتب شاب معروف بميوله ؛ إذ قال : « إن كلمة عمر الخالدة : لو عثرت بغلة في العراق لسئلت عنها أمام الله لِمَ لَمْ أسو لها الطريق ، تفتح الطريق أمام « رؤية شاملة » لبعد نظره ، وإحساسه العميق الفطري بوحدة العراق مع الجزيرة العربية . وغيرها من الدول العربية ، وتبدو في ثنايا الكلمات مسئولية الحاكم – الممثل للطبقات الكادحة – أمام أصحاب الحق والمصلحة في حركة التاريخ ، وكلمة « الله » هنا رمز (هكذا) ؛ إذ تعني بالضرورة!! سلطة

الطبقة التي استخلصت حقوقها ومصيرها من يد العفن الإقطاعي، والرأسمالية الداعرة الخائنة، في مجتمع مكة الاستغلالي، وكلمة «بغلة» نفسها توحي بحس مرهف صقلته التجارب عبر المسيرة الثورية الأصيلة، تذكرنا بشفافية الفنان الروسي تشيخوف وواقعية الروائي الأشهر مكسيم جوركي.. إلخ» خليط غريب، وتفسيرات لا أستطيع أن أخرج منها بمعنى شامل يرتبط بحياة الخليفة وسياسته وعقيدته..

حتى السجون والمعتقلات شاع فيها النبأ. وزعم المجرمون وتجار المخدرات واللصوص، أنه سيصدر عنهم عفو شامل لامحالة، بهذه المناسبة السعيدة، ووجدوا من يقول لهم: إن عمر قد أبطل حد السرقة في عام المجاعة، وكان لا يعاقب اللصوص في تلك الفترة، وأنه عادل رحيم يهيء سبل العيش الشريف لكل المساكين والفقراء وذوي العاهات، إنه حبيب اللصوص والتعساء والمظلومين.. وكف السجناء المزمنون عن ترديد أساطير أبي زيد الهلالي، والأميرة ذات الهمة، وأرسين لوبين، وأخذوا مسيرة عمر الفارس الهمام الذي لا يشق له غبار، والحاكم العادل الذي قضى على الظلم والفساد، ودوخ الفرس والرومان، وأخذ من الأغنياء ليعطي الفقراء، وقضى على المحسوبية والرشاوى..

وحتى محلات الأزياء الحديثة، حيث يباع الميني جيب، وأدوات التجميل الفرنسية الصنع، نظموا «أوكازيونات» بهذه

المناسبة السعيدة، وافتتح بعضهم فروعًا تحمل اسم الفاروق أو عمر أو ابن الخطاب، وبلغت السخرية أقصاها حينما قبضت شرطة المخدرات على كمية ضخمة من الحشيش المهرب من إسرائيل، ووجد أن اسم الماركة الجديدة «الفاروق».. الحقيقة أن الموضوع الطريف قد خلق موجة من الإنعاش الاقتصادي في شتى المجالات، كما سجلت دفاتر المواليد نسبة كبيرة من الأطفال الذكور، الذين سُمُّوا باسم «عمر»، بل إن بعض المواليد من الإناث سمين باسم «حفصة» ابنة عمر، وانتشرت مجالس الذكر التي تقيمها الطرق الصوفية في كل كفر وقرية، وعمروا المساجد والزوايا.. وزعم بعض العامة أن لعمر قبر في بطن الجبل، وضربوا عرض الحائط بتأكيدات المؤرخين الذين ذكروا لهم أن قبر عمر إلى جوار قبر الرسول وأبي بكر في المدينة المنورة.. وظهرت دعوة في مجلة دينية صغيرة ضيقة الانتشار، تقول: إن على الدول العربية أن توسط «الصليب الأحمر الدولي» أو مراقبي هيئة الأمم، كي تعامل إسرائيل عمر «كأسير حرب»، وليسلم لإحدى الدول العربية أو الإسلامية.

وأبدى علماء الدين همة كبرى في الاحتفال بأيام عمر وسيرته العطرة، وحاولوا تخليص تاريخه الحافل من الخرافات التي أخذت تنتشر بين العامة..

أما فيما يختص «بعمر» – الشخص الذي ظهر في القدس فقد تناقضت الآراء، قال أحد العلماء، هذه قضية سياسية

لا يصح الخوض فيها إلا بعد أن تتخذ الحكومات قرارًا بذلك
وقال آخر : لو كان هذا الإنسان عمر فعلًا ، لتولى على الفور مشيخة الأزهر ، ولجر علينا الكثير من المتاعب بسبب تقشفه وزهده وشدته ، ولسخر من بيوتنا وملابس بناتنا وزوجاتنا ، بل .. لحاول جلدهم ..

وثالث علق قائلًا : هذا زمان الفسق والفجور والسفور الداعر ، والعهر الفكري والفني والأخلاقي ، ولا مكان لعمر فيه ، وسيلقى من المسلمين أنفسهم حربًا لا تقل عنفًا عن حرب إسرائيل له ، لكن صديقًا له رد قائلًا : « إن هذا الزمان بنقائصه وانحرافاته أنسب مناخ لظهور رجل كعمر ، كي يلزمه الجادة ، ويأخذ بيده إلى طريق الخير والفضيلة والعدل ..» ، وعالم آخر قال الأمر كله أكذوبة ولا شيء غير ذلك .. وصوفي كبير عضو بالمجلس الصوفي الأعلى قال : « لا يراودني شك في أنه عمر بن الخطاب نفسه ، تلك كرامة من الكرامات ، أو مظهر من مظاهر قدرة الله التي لا يدانيها أحد ..»

واهتمت الصحافة العربية والإسلامية في مرحلة تالية ، بقصة « راشيل » واتهمت الصحافة الإسرائيلية بمطاردتها للعناصر الشريفة . وتشويه سمعتها ، ونسج الأكاذيب حولها ، ودليلهم على ذلك تكذيب « راشيل » لكل ما نشر بالصحف المعادية بهذا الخصوص .

لكن الموقف تغير تمامًا ، حينما غمزت إحدى الصحف ، وأوحت إلى القراء بأن الرجل « عميل » صهيوني ، و« لعبة » أمريكية بارعة ، وهنا قامت قيامة الصحف ، ورجال الدين ، والتقطت الخيط وانتقلت إلى « الرجعية » الخائنة المتعاونة مع الاستعمار والصهيونية ، وكان هذا بداية لموجة من الاعتقالات والتحقيقات .

وعندما ظهرت منشورات « جماعة أنصار عمر » تحير المعلقون ، ماذا يقولون ؟ أيهاجمون الافتراءات الصهيونية ، أم يهاجمون « جماعة أنصار عمر » ؟ وانحاز غالبية رجال الأمن في العالم العربي والإسلامي إلى الرأي الأخير .

وصدرت المقالات والتصريحات ترمي هذه الجماعة بالخداع والنفاق ، وإظهار خلاف ما تبطن ، واستقطاب الطاقات الثورية لتعطل العمل الحربي الفدائي ، وتشغل الجماهير عن معركتها الأصيلة ، وزعموا أن « جماعة أنصار عمر » ما هي إلا مؤسسة استعمارية تشبه « جماعة أنصار الحرية » ، ومجلة « حوار » التي تصدرها المخابرات الاستعمارية والإسرائيلية . والتي وقع في حبائلها عديد من حملة الأقلام الكبار .. والمضحك أن بعض الشكاوى المجهولة قد أرسلت لبعض الحكومات ، تتهم فيها بعض الأفراد بالانتماء إلى « جماعة أنصار عمر » ، مما اضطر رجال الأمن لعمل « دوسيهات » خاصة وقوائم لأولئك الأفراد المشبوهين .

أجل .. نجحت إسرائيل في بلبلة الرأي العام الإسلامي كما تفعل دائمًا ، ولم تكن قادرة على أن تحقق ذلك النجاح لولا سذاجة المسلمين ، ومناخهم الفكري والسياسي الصالح لنمو هذه الفتن واستشرائها ..

الفصل ١٨

استطاع أحد رؤساء تحرير الصحف أن يقنع سلطات الأمن بأن تسمح له بلقاء صحفي مع الخليفة ، وبين لهم أن هذا اللقاء لن يخرج عن بعض الأمور الطريفة المحرجة التي قد تظهر الخليفة بمظهر العاجز عن فهم الحياة الحديثة، وإدراك أسرارها وعلومها ومنجزاتها ، ولا شك أن ذلك سيكون له أسوأ الأثر على حلفائه وحوارييه والجمعيات السرية التي تروج لدعوته ، وسوف يفهم المتحمسون له أننا لا نهاب الخليفة أو نسجنه ، بل نعتبره مجرد تسلية جماهيرية مضحكة ، هكذا قال الصحفي الكبير ، والحقيقة أن ذلك الصحفي بذل جهدًا كبيرًا في الوصول إلى بغيته ، وتكلف الكثير من المال والهدايا ، واستغل الصداقات ، ووعد برد الخدمة في الدعاية لحزب معين عند الانتخابات .. وكان الخوف أن يعتصم بالصمت ويرفض الإجابة ، غير أن مخاوفهم قد تبددت حينما أبدى الخليفة استعداده للإجابة على أي سؤال . بل طلب منهم أن يسمحوا له بمخالطة الجماهير . والسير في الشوارع ، وارتياد ما شاء من الأماكن . فهو لا يخاف الناس . ولا يزعجه أن يقول ما يعلم ، ولا يحرجه ألا يعلم بعض الأمور .. فهذا أمر طبيعي ..

اتخذت الاستعدادات . وأخليت حجرة الخليفة . ودخل الصحفي الكبير ، ترافقه إحدى المحررات التي تجيد العربية »

وابتدأ الصحفي قائلًا : « الصحافة في خدمة الحقيقة »

– «لكل حقيقته يا رجل .. ولقد رأيت بنفسي كثيرًا مما تسمونه حقيقة ، فإذا به زيف وكذب ..»

ابتسم الصحفي ، ثم قال :

– « إنها تعبير عن رأي الشعب »

– «بل عبد ذليل في خدمة المصالح والأنانية ..»

واستخرج الصحفي بعض الجرائد قائلًا : « انظر .. هذا مقال يهاجم الحكومة ..»

نظر عمر في المقال ، وسمع للصحفي وهو يقرؤه ثم قال الخليفة : «فرق شاسع بين الهجاء .. والنصيحة .. لقد حبست شاعرنا الحطيئة عندما جعل من شعره منبرًا للسب والفحش ..»

مالت الصحفية على أذن رئيسها قائلة : «لندخل في موضوعنا مباشرة .. إن كلماته كالرصاص ..»

هز الصحفي رأسه موافقًا وقال : «من أنت ؟ »

– « عمر ..»

– « أكنت ملكًا ؟ »

– «بل خادم لأمة محمد ، حملت في عنقي أمانة تنوء بحملها الجمال ، دعوت الله أن يقبضني قبل أن يضعف جسدي ، أو يضرب فكري .. فاستجاب لدعائي ..»

– «قالوا : إنك كنت شديدًا في حكمك »

ابتسم عمر وقال : « لا يزال الإسلام منيعًا ما اشتد السلطان ، وليست شدة السلطان قتلًا بالسيف ، أو ضربًا بالسوط ، ولكن قضاءً بالحق ، وأخذًا بالعدل ..»

وتدخلت الفتاة المحررة قائلة : «ما رأيك في الصلح ؟ »

– «في القضاء .. الصلح جائز بين المسلمين المتخاصمين إلا صلحًا أحلّ حرامًا ، أو حرّم حلالًا ..»

– « أعني صلح إسرائيل مع العرب ..»

اكفهر وجهه وقال : «كيف يتم صلح بين اللص وضحيته .. إلا إذا ردت الحقوق لأربابها ؟ »

تدخل الصحفي قائلًا :

– «ما الفرق بين المسلم العربي والمسلم العجمي ..»

ابتسم عمر مرة أخرى وتمتم : «قلت ذات يوم : والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فلا ينظر رجل إلى القرابة ، وليعمل لما عند الله ، فمن قصّر به عمله ، لم يسرع به نسبه .. وحبيبي قال : لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى .. والمسلمون سواسية ..»

هتف الصحفي العجوز في مكر :

– «فلماذا قتلك أبو لؤلؤة المجوسي ؟ »

– « ولماذا قتل آباؤكم الأنبياء ؟ »

هزت الفتاة رأسها في ميوعة وقالت : « الحب يا أمير ..»

لم ينظر عمر إليها وقال : «له معنى كبير ..»

– « كيف ؟ »

– « لا يولد إلا في قلب المؤمن »

– « والملحدون ؟ ألا يعرفون الحب ؟! »

– «لكم دينكم ولي دين ..»

– «لم أفهم ..»

– «لغتك غير لغتي .. أنا أتكلم بلسان عربي مبين »

– « وأنا ؟ »

– « ذئبة ترتدي ثياب امرأة ، قلبك يطفح بظلام يضج بالأهواء العربيدة .. وأنا أبحث عن قوم يجردون الكلمات من استعاراتها الحيوانية ، وإيحاءاتها الخبيثة ..»

قهقهت المرأة في دهشة وقالت : « إنه يعرف في النقد الأدبي يا أستاذ ..»

– « أتحب راشيل يا أمير ؟ »

– «تضايقني يا فتاة كلمة أمير ..»

– «لن أعود لها ..»

– « أحب راشيل .. كما أحب أي مؤمن صادق في أي طرف من أطراف الأرض .. دون أن أراه ..»

قالت في غيظ : «راشيل .. الأنثى »

– «لم أفكر مطلقًا في الزواج ..»

– « أعني شيئًا آخر ..»

– « هذا لا يعنيني .»

أشار الصحفي بيده كي تصمت ، ثم اقترب منه قائلًا : « أتعتبر السينما رجسًا من عمل الشيطان ؟ »

– « السينما ككشف علمي مفخرة .. لكنكم ملأتم الوعاء بالقاذورات والأوبئة .. ولهذا تحولت المفخرة العلمية .. إلى أداة قتل وتشويه للقيم الفاضلة ..»

– «قيل لي أنك شاهدت مباراة كرة القدم الأخيرة .. أتحب الرياضة ..»

– «لهو بريء ، وتنشيط للجسم .. واكتساب لمهارات لا بأس بها .. إنها شيء يشبه اللعب بالسيوف ، وسباق الخيول على أيامنا ..»

وتدخلت المحررة مقاطعة : « أتفضل الموسيقى الشرقية أم الغربية ..»

– « الشيء الجميل محبوب ، دون النظر إلى شرقيته أو غربيته ، والحب عندي يرتبط بالفضيلة .. المهم ألا تحرك في نفسي نوايا شيطانية ، أو تصرفني عن عبادة الله ..»

أمسك الصحفي بالخيط متسائلًا : «ما هي العبادة ؟ »

– « الصلاة .. ذكر الله .. الصوم .. الزكاة .. الحب . الصدق .. العمل الصالح عبادة .. وكسب الرزق عبادة .. القاضي العادل

يتعبد على منصة القضاء ، والحاكم العادل عابد وهو يمسك بميزان الحق بين البشر ...»

وقالت المحررة : « أي رسل الله تفضل ؟ »

– « لا نفرق بين أحد من رسله ..»

وحاول الصحفي استثارته قائلًا : «كنت تكره يهود الجزيرة ..»

– «كنت أكره الظلم والفساد والخيانة ..»

– « أنت متعصب ..»

– «للحق وحده ..»

– « وأنت واصلت الحروب ، وأسلت الدماء ..»

رماه الخليفة بنظرة ذات معنى وقال : «قال لي الجراح لابد من استئصال «الزائدة الدودية» الفاسدة كي تعيش .. حطمت أسوار السجون التي يرزح خلفها البشر التعساء .. وفتحت الأبواب ليتدفق النور ويبدد الظلمات أتحب أنت أن تبقى الأسوار ، ويسود الظلام ، وتحيا بزائدة دودية متعفنة ؟ لا إكراه في الدين ..»

هب الصحفي واقفًا وقال : «يا للمصيبة!! أهذا مجنون ؟ مستحيل .. أين الخرافة التي يتحدثون عنها!!

وانحنى الصحفي أمامه في ذهول قائلًا : « أأنت عمر ؟ »

– «نعم ...»

قالت المحررة : «اسأله يا أستاذ عن حرب فيتنام ..»

هز الخليفة كتفيه قائلًا : «لم أدرس هذه القضية بعد .. من قال لا أعلم فقد أجاب .. لا أخوض في شيء إلا بعد تيقن ..»

قالت : « والقدس لمن ؟ »

– « السرقة لا تعطي اللص حق الملكية الشرعية ..»

همس الصحفي : « والشيوعية ؟ »

– « بسم الله الرحمن الرحيم : « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين .» صدق الله العظيم ..»

– « والدول الرأسمالية .. أمريكا مثلًا ؟ »

– « بسم الله الرحمن الرحيم : إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون – مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ..»

قال الصحفي العجوز : « هذا عصر العلم »

– « في كل عصر علم ..»

– « أعني لا مكان للدين ..»

– « خالق الزمان والمكان لم يعطكم هذه السلطة .. أنتم مغرورون .. والمنكرون لله لم يستطيعوا أن يغيروا من سنن الكون الإلهية ذرة ..»

هتفت المحررة : «لقد وطئت أقدامهم سطح القمر ..»

– « ذلك جهد المقل .. الطائر يعلو .. والنسر يحلق قرب القمم .. وطائراتكم تمتطي السحاب .. وآخرون صافحوا وجه القمر .. قدرات متباينة .. لا شيء سوى أنها جديدة .. أعرف أنه كان حلمًا .. لكنه ليس رخصة للجحود بخالق الإنسان .. والأرض .. والقمر .. والعناصر ..»

دارت رأس الصحفية ، لمعت في عينيها دمعتان ، ارتجف جسدها ، صاحت مستنجدة : « هيا بنا يا أستاذ .. أكاد أسقط إغماء .. وأوشك أن أؤمن بهذا الرجل ..»

جذبها من ذراعها وهتف في قسوة!

– « ما هذا العبث .. تماسكي .. لم نأت لنؤمن أو نكفر .. جئنا لنؤدي عملًا صحفيًا .. مهمة .. أتفهمين جلست على مقعد قريب ويدهاه على جبهتها ..

وقال الصحفي العجوز : « من أين جئت ؟ »

– « كما يأتي البشر .. لا عبرة بالمكان ..»

– « وإلى أي شيء تريد أن تدعو الناس .؟ »

مد الخليفة ذراعيه ، وبسط راحتيه ، وقال : « نعبد الله ، ولا نشرك به شيئًا ..»

– « أتريد أن تقول للجمهور شيئًا ..»

– « قلت الكثير .. ولا شيء سوى : وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ..»



اهتزت النوادي ، وتكهرب الجو ، واختلط الأمر على الناس ، وأعلنوا في عجز : « إنها ظاهرة غريبة ..»

الفصل ١٩

طال احتجاب «راشيل»، وشعرت أسرتها بالضجر والغيرة، وخاصة بعد أن نشر الحديث الذي أجراه الصحفي العجوز والمحررة الشابة، التي أثارت الاهتمام بتصرفاتها، وإظهاره الميل لما يقوله الخليفة، وتسليط بعض الضوء عليها.. وهدد والد «راشيل» سلطات الأمن بفضح مخططاتهم، أو رفع الأمر إلى القضاء، ورفض تحديد إقامة فتاته دون مبرر كاف، وكان يردد دائمًا أن ابنته لها الحق في أن تقابل من تشاء وتعتنق ما تشاء، وأن الخليفة ليس بالشخص السيء أو الذي ثبتت إدانته في ارتكاب عمل حقيقي، يعتبر منافيًا للقانون، وقال: «إن التدخل في مسألة شخصية كهذه، أمر يدعو للأسف، ويعتبر اعتداءً صارخًا على حرية المواطنين، وفيه إساءة إلى سمعة الدولة».. لقد وجد أبو «راشيل» أن في إمكانه إثارة قضية جديدة، ولفت الأنظار ثانية إلى ابنته، فيكون بذلك قد خلق مادة طريفة، فتثرى مادة المذكرات، ويزداد عدد صفحاتها، ويرتفع ثمنها، ولم تمانع راشيل في تنفيذ هذا المخطط، لا عن اقتناع بوجهة نظر أبيها، ولكنها لم تعد تطيق البعد عن الخليفة، إنها تشعر بلهفة عارمة للقياه، ومن ثم كان احتجازها مرهقًا لأعصابها، باعثًا للضيق والحنق في نفسها، إزاء هذه الضجة وجدت سلطات

الأمن، أنه لا مانع من إطلاق حرية الفتاة، بشرط ألا تقابل إلا الخليفة وحده، وتحاول الكف عن الإدلاء بأية تصريحات للصحف أو لعامة الناس، وخاصة الفتيات الصغيرات السن.

لبست «راشيل» ثيابها الضافية، وامتنعت عن استعمال مساحيق الوجه أو أدوات التجميل لأول مرة، وحينما ألحت عليها أمها قالت: «لا داعي لكل هذا، إني أمقت الزيف، ولن أنفذ إلا ما يرضي الخليفة، إنني أشعر بسعادة كبرى، حينما أقدم على فعل شيء أمرني به، أو أتخلى عن صنيع لا يروق له..»

ضحكت أمها وقالت: «إنك تجيدين دورك مثلما كانت تفعل أمك تمامًا.»

وأسدلت راشيل الشال الأسود على وجهها، ثم هرولت خارجة، وعلى مقربة من الباب التقت بإيلي. «أين تذهبين؟»

قالت وهي تواصل سيرها: «إليه»

– «إنني أعرفك جيدًا يا راشيل»

قالت في تحد: «راشيل اليوم وغدًا بإذن الله».

– «راشيل الأمس أم اليوم؟ أنت تبيعين وطنك بأحط الأثمان..»

رمته بنظرة ساخرة قائلة: «لقد آمنت بالرجل، وهذا حقى، وكل دولة في العالم تحتضن إلى صدرها شتى المذاهب والأديان..»

دق الأرض بقدمه وصاح : « أنت لا تعرفين شيئًا اسمه المبادئ ». فردت: « أنت عبد للأنانية والحقد ..»

صرخ مغتاظًا : «بل أنت فتاة تستعبدها نزواتها ، أنا أعرفك ، وقد استعصى عليك الرجل ، وعندما تنالين منه ما تريدين سينتهي كل شيء .. الحرمان يُجَمِّلُ لك الصبر ، ويرسم لك قيمًا زائفة .. وستتعرى فلسفتك العرجاء إن عاجلًا أو آجلًا ..»

غمغمت : « أنت تحلل الأمور بعقل حاقد مريض »

ثم شردت قائلة ، وعيناها تهرع للسحب البيضاء بنظرات حالمة : « لا أستطيع أن أحجب خياله عن ذهني ، كلماته الشجية تطن في رأسي صباح مساءً .. الوحيد في عالمنا الذي أفلت من إسار الخوف والنفاق والعقد النفسية .. لو صورته لي الكتب على هذه الصورة قبل أن أراه ، لهززت كتفي ساخرة وقلت هذه أسطورة لا وجود لها .. لكني الآن ألمسه عن كثب .. وأسمع كلماته ، ويحلو لي دائمًا أن أقارن بينه وبين غيره من الناس ، فيهولني الفرق الشاسع ..»

ثم التفتت إلي « إيلي » ، وتوقفت عن السير ، وقالت في جد : «لم لا تفكر في اتباعه ؟ »

– « مستحيل .. أنا أكرهه بكل ذرة في كياني ..»

وضحك في توتر واستطرد : « المسلمون أنفسهم يرفضونه .. واليهود لن يتركوه .. والمسيحيون منزعجون لترامي شهرته وتأثيره ..»

قالت « راشيل » : «لم ينج من الانحراف أحد .. حياتنا المادية جعلت الجميع يعادون كل معنى روحي جميل .. رجل الله لا يخاف .. لا يعرف دبلوماسية العصر الخربة .. لا يحركه مطمع ذليل .. عالمنا كله يقيس تصرفاته بالمنفعة .. بالمقاييس المنحطة ، حتى الدين أحالوه إلى قضية دنيوية بحتة ، تتقاذفه أهواؤهم وعصبيتهم وسلطاتهم الرخيصة .

شحب وجه « إيلي » ، وقال مضطربًا : «تتكلمين كفيلسوفة وأحيانًا كمبشرة .. الكارثة أن أسرتك وبعض رجالنا ما زالوا يثقون فيك .. وأنا .. أنا المسكين .. أحاول دائمًا أن أدافع عنك .. كلما ازددتِ عني بُعدًا ، ازددتُ بك تمسكًا .. أي شيطان تَلَبَّس جسدي ..»

طأطأت رأسها وقالت في ارتباك : « إنني مخلصة للحقيقة وحدها .. لماذا لا تمضي معي في الطريق يا « إيلي » سأكون في غاية من السعادة . حينما أرى رجلًا مثلك يبصق على تفاهات العصر الحقيرة ، ويخلع عن فكره وقلبه سلاسل القهر .. ويتحرر .. ويتجرد لله ..»

رفع صوته في محاولة للتغلب على ضعفه وقال : « أنا لا أعرف غير عملي ومستقبلي ووطني »

– «لقد صبوك في قوالبهم .. ماتت إرادتك ..»

– « أنا رجل واقعي ..»

– «لشد ما تظلمون الواقعية!! تسمون الاستسلام لنزواتكم وأطماعكم واقعية، وتدوسون القيم الإنسانية وتفلسفون خطاياكم، وتزعمون أنها واقعية ..»

ثم التفتت إليه قائلة : «دعني وشأني»

لوح بسبابته مهددًا : «إنني أنذرك ..»

– «أنا حرة ..»

– «وسأسحقك كحشرة ..»

– «ذاك عين العجز والبلاهة ..»

– «أنت تمزقين التقاليد العريقة ..»

– «حياتي الجديدة لا تخضع إلا لكلمات الله ..»

– «اذهبي إلى الجحيم ..»

– «آه لو علمت ما أسعد به من نعيم روحي .. آه ..»

استدار إيلي، ومضى سريع الخطو، ثائر الفكر، وانصبت آلات التصوير فجأة على راشيل، فأشاحت بيدها غاضبة مندهشة، وتمتمت : «أنتم تسممون حياتي أيها الكذبة ..»

ثم أشارت إلى سيارة أجرة، وأسرعت إلى المستشفى العربي بالقدس ..

الفصل ٢٠

عاد الدكتور وهيب من أجازته، وكان مرهقًا شاحبًا، كمريض في طور النقاهة، وكان الشرود والقلق باديين عليه، وظن البعض أن هَجْرَ «رجاء» له هو السبب فيما يعانيه. وآخرون رجحوا أن هناك مأساة عائلية تعتصر قلبه، وخاصة بعد أن قضى أجازته في قريته المحتلة. وكما سأله سائل، قال في اقتضاب «لا شيء!» ورأت رجاء أن تجامله فقالت : «آسفة .. نحن قلقون من أجلك»

– «لا مبرر للقلق ..»

– «لم أقصد الإساءة إليك»

– «أعرف يا رجاء .. هناك شيء أقوى من الحب»

قالت في اضطراب : «أنا لم أعدك بشيء .. إن ما كان بيننا مجرد علاقة أخوية»

همس في اسى: «هناك بديهيات لا يصح أن أتجاهلها.. كانت هناك علاقة ما بيني وبينك .. أية علاقة لا يصح أن تلغي حرية أحد الطرفين ..»

قالت : «يحزنني أن أتسبب في نكدك ..»

– «المفروض أن نتقبل أمورًا كثيرة تؤلمنا .. المقاومة فيها لا تجدي ..»

– «كلماتك تشي بالأحزان ..»

– «لأن حبك كان شيئًا رئيسيًا في حياتي ..»

لم تستطع أن تجيب، أما هو فقد هز رأسه قائلًا: «أنت صاحبة مبدأ .. ولهذا أعتز بك .. عندما تكون السيادة للمبادىء فإن كل أحزاننا ومآسي شعوبنا ستذوب، ويولد عالم جديد .. المبادىء عندي تقدمية ورجعية .. وجهة نظر .. كنت أحتقر مبادىء الآخرين. هذا خطأ جسيم ..»

أخذت تستمع إليه في اهتمام، ثم سمعته يقول: «إن زواج فتاة مثلك من رجل مثلي يثير قلاقل عدة .. لا أقول أنه مخالف للشرع الذي تؤمنين به فحسب، بل يخلق جيلًا متمزقًا غريبًا .. قد يأنس البعض لزواج كهذا .. ويتلذذون بما يصاحبه من صعوبات .. وطرائف .. المسلم يتزوج كتابية .. المسلمة لا يتزوجها مركسي لا دين له ..»

قالت رجاء في اضطراب: «لا داعي لمثل هذا الكلام ..»

– «أنا أكره النفاق .. لقد دارت أشياء كهذه في رأسك منذ قدم عمر»

واستأذن وهيب، وقصد عنبر المرضى، وجال بينهم متفحصًا حالاتهم، مقررًا ما يحتاجون من علاج ورعاية، ثم بحث عن عبد الوهاب وطلب منه أن يدبر له أمر مقابلة الخليفة، قال عبد الوهاب: «لا مجال للسخريات مرة أخرى»

– «لم يخطر ببالي شيء كهذا ..»

– «لكن الحراسة مشددة ..»

– «نحن أطباء يا دكتور عبد الوهاب»

هز عبد الوهاب رأسه موافقًا وقال: «من حسن الحظ أن «إيلي» غير موجود .. إنه شرس عنيد»

جهز وهيب بعض الآلات الطبية، وصحب معه رجاء، واستأذن من الضابط المسئول، وأخبره بأن فحصًا هامًا سيُجرى للمريض، وأنه يريد غرفة المريض خالية من الأشخاص ..

كان قلب وهيب يدق في عنف، لقد تعجب هو نفسه لهذا الأمر الغريب، الخليفة مجرد إنسان بلا سلطة، يحاصره الجحود والعداء من كل جانب، وترصده الأجهزة الرهيبة الماكرة، وتكاد تعتصره .. لم هذا الاضطراب يا وهيب؟ ورجاء واقفة إلى جواره، وتمتم وهيب في خجل غير مألوف: «أيها الخليفة .. قرأت عنك كل شيء ..»

قال الخليفة بتواضع وبساطة: «لكني لست كل شيء ..»

نظر إليه وهيب في دهشة، يالها من كلمة جامعة شاملة قالها الخليفة على الفور، دون أن يمعن فكرًا، أو يحشد جهدًا.

– «كيف؟»

– «المعرفة الرئيسية تُستقى من المصدر .. هناك الفيض والغيث العميم ..»

– «وما هو المصدر يا أمير المؤمنين ..؟»

- « الله ...»

- «لكني عاجز عن اكتناه اللامتناه ..»

- «في أشعته يا ولدي ترى الكون .. لم يصنع الكون نفسه .. إنه إبداع الخالق .. وفي المخلوق ترى عظمة الخالق .. القصيدة الرائعة تنبئ عن شاعر عظيم .. ولم الثرثرة .. أقصد كلمات الله ، سوف تأخذ بيدك إلى المصدر ..»

وصمت وهيب برهة ، بينما وقفت رجاء تشهد ما يجري في تمام يقظتها ، وعاد وهيب يقول : «لم أكن أرى في الحياة سوى عذاب المساكين والتعساء ، فقلت من أجل هؤلاء يجب أن تركز الجهود، وإسعاد البشر غاية ..»

تمتم الخليفة : «غاية ؟ لا .. بل وسيلة إلى الخير والعدل .. الغاية هو الله .. عملك عظيم لكن شابه اضطراب خفي ..»

- « أسمع ذلك لأول مرة »

- « أتؤمن به ؟ »

قال وهيب دون تردد : « أجل ..»

- « إذن فقد عمر قلبك بالأفراح ، ووضعت قدمك على أول الطريق .. آن أوان السفر ، فلتمض فيه حتى النهاية .. وبالإخلاص سترى معالم الطريق واضحة مشرقة .. تظللها المعرفة .. ستجد علاج المساكين والتعساء .. وأدب الحكم والحاكمين .. والعلاقات الكثيرة التي تحكم الكون والحياة ..

إنكم لم تخلقوا عبثًا .. ولن تتركوا سدى .. اليقين طريق السعادة ..»

قال وهيب : « وماذا نقول للناس ؟ »

- « ادعوهم بدعوة كل الأنبياء والرسل .. ألا يشركوا بالله شيئًا .. في التوحيد عزة وخلاص من الوثنيات التي تضلل عالمكم دون أن تشعروا .. هكذا تحدث القرآن ..»

قالت رجاء في سعادة : « دعوة سهلة لا تكلف حاملها أية مشقة ..»

ابتسم الخليفة قائلًا : « هذه الكلمات « لا إله إلا الله محمد رسول الله » لو قيلت بحق لارتج العالم ، ولتغيرت المقاييس ... ولخرجت الثعابين من جحورها تنفث سمومها دون رحمة .. ولعربدت قطعان الذئاب تنهش لحوم المؤمنين.

في عالمكم آلهة كثيرة زائفة ترفض الإذعان للواحد الأحد ..

يا أبنائي ما جئت لأسقط حكومة ، أو أخوض معركة واحدة وأمضي .. ولكن جئت لأذكركم بكلمة التوحيد التي ترددونها في صلواتكم كل يوم دون استيعاب .. عندما تسير جموعكم على جناحي الشهادتين ، فستنالون الحرية والنصر والعدل .. وسيكون الموت في سبيل الله نصرًا ، والحياة لدعوة الله نصرًا .. والآن .. إلى عملكم يرحمكم الله ..»

خرج وهيب ، ينضح جبينه عرقًا . وأهدابه مخضلة بالدموع ، وتبعته رجاء دامعة خافضة الرأس .

وهمس : « نحن معًا إلى الله ..»

- « هذا أسعد يوم في حياتي ..»

لم يكن التحول الذي اجتاح وهيب تحولًا مفاجئًا ، فقد جاء نتيجة معاناة مجهدة ، وتفكير طويل .. وبعد أن خاض التجارب العديدة ، ومأساة الأيام الحزينة تثقل قلبه وفكره ، وتورثه الأرق والقلق العنيد ..

وتمتم وهيب وهو يجفف دموعه مرة ثانية : « هذا أسعد يوم في حياتي ..

- إن فكر الرجل لا يرفضه أي عقل سليم

- ولا تنفر منه أية فطرة سليمة ..»



الفصل ٢١

« دافيد » شاب في الثانية والعشرين من عمره ، تلقى أصول السياسة في أحضان حزب من الأحزاب الإسرائيلية المعروفة ، والتي لها سبعة مقاعد في « الكنيست » وهو يحفظ الكثير من صفحات التوراة ، ولا يكتفي بدولة إسرائيل الكبرى التي تمتد من النيل إلى الفرات ، وتذهب جنوبًا حتى تشمل أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية .. لا .. أحلامه أكبر من ذلك بكثير ، إن عقيدته هي أن تكون السيطرة الصهيونية على العالم كله ، لقد قرأ بروتوكولات حكماء صهيون ، وتأثر بالكثير منها ، بعض أصدقائه يتهمونه بالمغالاة ، والإغراق في الأحلام لكنه يسخر من ضعف عزيمتهم ، وقصور آمالهم ، ويؤكد لهم أن صهيون بسيطرتها على الاقتصاد في كثير من دول العالم . تجعل لوكلائها نفوذًا كبيرا على الحكومات ، وتوجيه سياساتها ويردد أيضًا أن تغلغل دي الصهيونية والفكر الصهيوني في أجهزة الإعلام الكبرى في شتى البلاد ، يشكل تحديات كبرى للأعداء ، ويتحكم في التأثير على الرأي العام تحكمًا خطيرًا ، وموقفهم المتآزر حيال الانتخابات الأمريكية ، واشتراك عدد من علمائهم في الأبحاث النووية وأبحاث الفضاء ، يجعل من « البيت الأبيض » الأمريكي لعبة في أيديهم ، ويزعم « دافيد » أنه ليس بين صهيون وتحقيق

حلمها الكبير في سيادة العالم إلا خطوات قليلة .

كان «دافيد» يرقب الأحداث الجارية باهتمام بالغ ، اشتعل في قلبه غيظ دفين ، وهو يقرأ تطورات قصة الخليفة «المزعوم» ، الذي أقام المدينة وأقعدها ، وشغل الصحف ووكالات الأنباء ، ونظرًا لأن «دافيد» على صلة وطيدة «بإيلي» ، فقد علم منه الكثير وخاصة قصة «راشيل» مع الخليفة ، وكان يتحرق حنقًا ، ويتمنى لو أمسك بمسدس وأفرغ رصاصاته في صدره .. إنه يكره الرجل ، ويكره مبادئه .

وقال دافيد لإيلي ذات مساء : «لو صح أن هذا الرجل هو عمر بن الخطاب فعلًا ، لكانت فرصة ذهبية ، لننتقم لأحزاننا في «خيبر» ، ولبني قريظة وبني النضير وبني القينقاع هؤلاء الذين أذلهم المسلمون في قديم الزمان ..»

وعندما انتشرت أنباء طالبات المدرسة اللاتى ذهبن لاعتناق مبادىء الخليفة كاد دافيد يجن ، وعلق قائلًا : «هؤلاء الفاسدات المخدوعات ، يلوثن مجد صهيون ويسقطن بكرامتهن في الحضيض ، لابد أن نسحقهن سحقًا ..»

وكان دافيد يعتقد أن «راشيل» تلعب دورًا هامًا لحساب المخابرات العامة الصهيونية ، لكن خبر هؤلاء الفتيات أثار الشكوك في نفسه تجاهها ، وأدرك إيلي ما يعتمل في نفس دافيد ، فقال : «أنت تأبى أن تصدقني يا دافيد .. راشيل غارقة

حتى أذنيها في حب هذا الرجل الغامض .. لقد انحازت إلى جانبه تمامًا ..» .

علق دافيد في ضيق : «حكومتنا تتصرف بغباء حيال هذه القضية ، يجب أن يدمروا هذا الرجل «الأكذوبة» ، قبل أن يشتد تهافت المجانين من الناس عليه .. فليقذفوا به إلى الجحيم .. أو يلصقوا به تهمة الانتماء لمنظمة «فتح» ، ثم يعدمونه رميًا بالرصاص في ميدان عام ، حتى يكون عبرة لغيره ..»

قال إيلي هامسًا في سعادة : «هذا ما سوف يفعلونه .. لكنهم يريدون امتصاصه أولًا .. ما زالوا يعتقدون بأن وراءه مؤامرة خبيثة ..»

قال دافيد متأثرًا : «هل قرأت تصريحاته الصحفية الأخيرة ؟ لقد أثارت بلبلة كبرى .. حتى المسيحيون واليهود أدارت كلماته رءوسهم .. إن كلمات الرجل وتأثيره البالغ على عقول العامة .. بل والخاصة .. من أخطر المؤامرات .. ماذا ينتظرون ؟»

وقضى «دافيد» أيامًا مليئة بالضيق والأرق والسخط ، أسرته تشهد في قلق توتره وغضبه ، إدارة الجوازات والجنسية التي يعمل بها ضجت أروقتها بمناقشاته الحادة ، وثورته العارمة وأن الحزب والنادي ودار العبادة ضجت هي الأخرى بتعليقاته الصاخبة .. كثير من أصدقائه بدءوا يميلون لرأيه تعصبًا ..

وذات مساء ارتدى زيه الكامل ، واتخذ طريقه صوب بيت «راشيل» ، أغلقوا الباب في وجهه ، واعتذروا عن اللقاء؛ لأن

الوقت غير مناسب، كانت راشيل تعرفه، وتعرف صداقته «لإيلي» .. وفكرت .. لم لا تقابله؟ إنه ليس صحفيًا قد يكون فتى طيبًا ينجذب نحو النور برغم ما تعرفه عنه من تطرف سياسي. وتعصب ديني .. وقد يغير الله العواطف والأفكار في لحظة من لحظات التنوير الباهرة ..

وصاحت من الداخل: «دعوه يدخل .. تفضل .. مرحبًا بك يا دافيد ..»

وعندما استقر بهما المقام في غرفة الاستقبال المتواضعة قال دافيد شاحبًا متوترًا:

«آسف للإزعاج .. لكن .. هل صحيح ما نقرؤه في الصحف، ونسمعه في الشارع؟»

– «وماذا سمعت؟»

– «خدعتك كلماته ..»

قالت شاردة: «للحقيقة قوة جذب خارقة، لا تستطيع المعادن النقية أن تفلت منها ..

غمغم في رعب: «تدعين الحكمة؟»

– «أصور ما حدث دون تنميق ..»

وهدر: «يا عار الجيل ..»

تطلعت إليه، كان منظره يدعو إلى الرثاء، فقالت في صبر: «أعترف أنه كانت في أطماع «صبيانية» في البداية .. لكن عندما عاشرت الرجل، وسمعت كلماته، واستوعبتها، تغير كل

شيء .. لم أستسلم للهواجس، وإنما لبيت نداء عقلي وقلبي .. لماذا يخدع الإنسان نفسه، ويغلل روحه وفكره بسلاسل الجمود؟.

حرك رأسه في عصبية، وأخذ يفرقع أصابعه متوترًا، وقال: «إن كنت صادقة فيما تقولين، فأنت سرطان يجب استئصاله ..»

ابتسمت في هدوء لم يكن يتوقعه، وهمست في ثقة: «لا يأخذ الروح إلا خالقها .. الموت لا يخنق نور الحقيقة .. مصباحها القدسي يضيء .. ويضيء .. لأنه خالد لا يموت ..»

قال في اشمئزاز: «أنت بعد الموت جيفة قذرة، عن أية حقيقة تتكلمين ..»

قالت وقد شعرت ببذر ثورة في داخلها: «الحوار الأصيل ليس سبابًا .. لن تنتصر بشتائمك. أخذ العرق يتقاطر على جبينه الأشقر، وبدت نظراته قلقة حائرة، وظل فترة من الزمن صامتًا، كان يحترق بالانفعالات الهادرة، والعجز القاتل، لم يكن موفقًا في حديثه، ولم يتخذ طريق اللطف والمداهنة، ما لهذا جاء ..

– «آسف يا راشيل .. إنك شديدة الإيمان بما تقولين، وأنا أعذرك، كنت وقحًا عديم اللياقة .. لكني سعيد .. إن عنفي أظهر أشياء ذات قيمة ..»

وهمست «راشيل» وقد زايلها غضبها المكتوب.

– «لقد خلقنا الله أحرارًا ، وأنعم علينا بنعمة العقل ، وأمدنا بفطرة سليمة .. ولنا أن نختار .. أيضايقك أن يختار إنسان حر الطريق الذي يريد ؟»

نظر إلى وجهها الفاتن ، وعينيها اللتين تشعان صدقًا وإصرارًا ، والوقار الغريب الذي يواكب حركاتها وسكناتها ، وقال متراجعًا :

– «حديثكِ مثير ، وجدير بالاستماع .. ماذا جرى لي ؟ يا لي من أحمق ، لقد كنت مخطئًا في ثورتي .. الحق أقول .. لكني أعتقد أن الموضوع يحتاج إلى مزيد من التوضيح .. إنها ليست قضية سهلة يا راشيل ..»

هزت رأسها موافقة :

– «أجل .. اتخاذ موقف عمل كبير .. الموقف هو الإنسان .. أتفهمني يا دافيد ؟»

ابتسم ، وقال في تأكيد :

– «أجل .. موقف حاسم .. لابد ..»

ثم عاد يقول وقد اتسعت ابتسامته :

– «وأظن أنك لن تمانعي في مقابلتي مرة ثانية .. فقد .. من يدري ؟ فقد أقتنع وأمضي معك في نفس الطريق .. لكن تذكري أنني صعب المراس ، صلب عنيد ..»

توهجت ملامحها بالسعادة ، وصبغت وجهها حمرة سحرية ، وبدا الخجل في حركاتها ونظراتها ، ثم قالت : «ربما أكون

قليلة المعلومات كمبتدئة .. ومع ذلك فأنا على استعداد لمواصلة الحوار .. ويمكنك أن ترجع لحديث الخليفة المنشور أخيرًا في إحدى الصحف .. لقد تطرق إلى الدين .. والسياسة .. والفن .. والفكر .. والعلم» إنه موجز ، لكنه في الحقيقة يا دافيد معجز .. ويمكنني أيضًا أن أرتب لك مقابلة مع الخليفة نفسه .. إنه إنسان طيب بسيط ..»

انتصبت أذناه المحتقنتان ، وقال في اهتمام :

– «فكرة رائعة .. لكن يجب أن يسبقها لقاء خاص بيني وبينك حتى يكون لدى حصيلة كافية عن الموضوع ..»

ثم استطرد وهو يهمّ بالوقوف :

– «أتوافقين على أن نلتقي هناك في أطراف المدينة .. في الغرب .. هناك شجرة عتيقة .. على مقربة منها كازينو صغير ..»

فكرت برهة ثم قالت :

– «ولم لا يأت إيلي معك ؟»

بهت ، ثم قال في ضيق :

– «لا أظنه يأتي .. أنت تعرفين ثورته وعناده .. ثم إني لا أريده ..»

قالت : «وهو كذلك ..»



كان يمشي في الشوارع مسرعًا دون هدف، لكأنما يجري وراءه وحش مفترس، وكلماتها تتتابع في رأسه الملتهب .. هل هي يهودية بنت يهودي؟ مستحيل، لابد أن فيها عرقًا غريبًا أفسد طبيعتها، ولوث فكرها، وخالط روحها بأنفاس الشياطين .. هي دسيسة .. لا شك .. أو مجنونة .. يا للتلف الذي أصاب كل شيء فيها .. لكنها جميلة .. أشعر أنها عرضة لقاطع طريق يريد أن يسبيها منا .. وظل دافيد يفكر .. ويفكر ..

وبعد يومين من هذا اللقاء اهتزت أرجاء القدس لحادث وقع، حادث مثير مهول، وحملت الصحف على صدر صفحاتها عناوين ضخمة .. لقد وُجدت راشيل في مكان ناء بأطراف المدينة، ملقاة تحت شجرة عتيقة، والدماء تنزف منها، وقد تعرضت لطعنات في بطنها وصدرها ووجهها .. لكنها لم تمت .. كانت في غيبوبة تامة .. واضطرب الناس حيال الحادث الغريب .. قال قائل: تلك بداية لما سيجره علينا الرجل الغريب من كوارث»، وقال ثان: «لقد ارتكبت الجريمة بيد عربية مسلمة؛ لأنهم يظنون أن راشيل اليهودية جاسوسة تخدع الخليفة المزعوم، وتحصي عليه كلماته وحركاته وسكناته». وقال ثالث:

- «إن إيلي - خطيبها المهزوم - قد أخذ بثأره. وانتقم لكرامته وكبريائه الجريحة».

وزعم أحد المواطنين، أنه رأى راشيل - قبيل الحادث - وبرفقتها فتى عربي، وأخذ يصف لونه، ويحدد طوله، والثياب التي كان يلبسها، بل ادعى أنه سمعها تقول: «إلى أين نسير؟ إنني خائفة» وخرجت مدرسة البنات التي عقدت فيها ندوة «راشيل» منذ فترة، في مظاهرة كبيرة، مطالبة بالبحث عن الجاني، والاهتمام بالتحقيق، حتى تتكشف الأمور الغامضة ..

وقال معلق صحفي كبير: «إن المسئول الأول عن هذه الجريمة - كائنًا من كان فاعلها - هو الخليفة المزعوم، فإذا ماتت راشيل فإن دمها معلق بعنقه» وكتب معلق آخر: «إن منظمة فتح وراء الحادث بكل تأكيد، وسينجلي الغموض إن عاجلًا أو آجلًا ..» واعتقل رجال الأمن عددًا كبيرًا من العرب، من بينهم الدكتور عبد الوهاب والدكتور وهيب والممرضة «رجاء»، وعددًا من الفراشين والتومرجية».

واعتقلوني أنا الآخر .. ولم يحتجز للتحقيق من اليهود سوى إيلي، الذي أخلي سبيله على الفور، بعد أن أكد لهم عدم صلته بالحادث، وأثبت أنه كان في مكان معين، للقيام بعملية خاصة كلفه بها رئيسه، وقد أيد الشهود أقواله.

وقالت أم راشيل والدموع تغرق وجهها: «إذا ماتت ابنتي، فإن موتها سيكون خسارة كبرى»

وقال أبوها في حزن: «إذا حدث ذلك فعلًا، فسأقاضي الحكومة، بل سأقاضيها منذ الآن؛ لأنها قصرت في حماية

ابنتي .. إن راشيل أصبحت من ألمع نجوم المجتمع وأخطرها .. ومن الواجب حمايتها، كما يُحْمَي موشيه ديان أو العجوز جولدامائير ..»

الفصل ٢٢

كان الحقد يأكل قلبه، ويهدر كبركان هائج، ويوشك أن يجن .. راشيل على قيد الحياة، أية نكسة أصابت آماله، وهدمت مخططاته؟ وفكر في أن يتسلل إليها داخل المستشفى كي يجهز عليها قبل أن تفيق من غيبوبتها، وأخذ يحوم متوترًا حول المبنى، لكن الحراس أبعدوه مرارًا، وهددوه بالقبض عليه إن لم ينصرف .. إن أهل «راشيل» أنفسهم لا يستطيعون زيارتها، فكيف بالغرباء عنها؟ وعاد «دافيد» إلى بيته مضطربًا شاحبًا، وبرقت في ذهنه فكرة شريرة، وأخذ يجول بنظراته القلقة داخل الحجرة الضيقة، وتمتم: «إنه المسئول الأول عن كل ما جرى، هكذا قالت بعض الصحف، وهو قول يتفق ووجهة نظري، لو قضيت عليه لوضعت بذلك نهاية لتلك المأساة المضحكة .. عمر ..»

لم تخفت الضجة التي أثارها الحادث، وصرح عالم الدين الرسمي بالقدس: «إن هذه الفتن العشواء، والدماء التي تهدر ظلمًا، إنما هي من باب الفتن التي لا يرضاها الله، ولا تقرها تعاليم رسوله صلى الله عليه وسلم، وإن وجود تلك الشخصية الغامضة «عمر» سوف يجر إلى بلاء مستطير، وإلى خلافات دينية، وتعصبات حمقاء، لا يعلم إلا الله مداها» وألمح إلى

مواقفه السابقة، وعدم انسياقه وراء عواطف الجماهير «البريئة»، ووقع على البيان باسمه..

ودخل الدكتور محمود العناني على الخليفة حزينًا مقطب الجبين، ثم فحصه في ارتباك ظاهر، وتمتم بصوت خفيض: «يا أمير المؤمنين، الأمور تسوء، اعتقلوا وهيب وعبد الوهاب ورجاء، وعددًا آخر كبيرًا من الناس بعد حادث «راشيل»».

قال الخليفة في دهشة: «أي حادث؟»

– «محاولة اغتيال راشيل.. لقد مزق جسدها خنجر مجنون..»

بدا الأسف ممزوجًا بالغضب على وجهه الكريم وقال:

– «لا حول ولا قوة إلا بالله..»

– «الأفق ينذر بالمخاطر..»

– «يا لها من مسكينة.. أنا أعرف طعنات الخنجر.. فعلها أبو لؤلؤة المجوسي بتحريض من اليهود والحاقدين.. كنت أعاني آلامًا شديدة.. ترى ما حالها الآن؟»

– «لم تجتز مرحلة الخطر بعد..»

وهتف الخليفة.

– «من فعلها يا محمود؟»

– «مجهول..»

– «إن ماتت فهي شهيدة»

وقال محمود في تردد: «بعض الأصابع المشبوهة تشير إليك في اتهام..»

هتف الخليفة: «أنا؟!»

– «هم يا أمير المؤمنين يبحثون عن كبش فداء لإسكات الجماهير المحتجة الثائرة..»

قال الخليفة في اطمئنان: «لن يسهل خداع الناس بعد ما جرى من أحداث.»

– «هم يغلفون دعاواهم الباطلة في ثوب الحق..

وعاد الخليفة إلى صمته، ثم أخذ يردد كلمات من القرآن: «وإذ يمكر بك الذين كفروا لثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين» صدق الله العظيم..

لشد ما تألم الخليفة لما أصاب «راشيل»، وأخذ يفكر فيمن يكون وراء ذلك الحادث، إن الشبهات التي كانت قائمة حول راشيل، لم تتعد مرحلة الشك، ولا تكفي لأن تدفع واحدًا من أتباعه لاغتيالها، ورجاله لن يتصرفوا على غير نصيحته، وقد أعلن الخليفة قبل ذلك موقفه بصراحة منها، والتزم بالثقة فيها، والاطمئنان إليها، وفتح قلبه لإيمانها، مؤمنًا أنها تسير من حسن إلى أحسن، وفي نبراتها الصدق والإخلاص، واندماجها في حياتها الجديدة، وقيامها بالدعوة علانية دون خوف، تثبت إخلاصها، كل ما تفعله راشيل لا يصعب فهمه بالنسبة لأي مراقب للأحداث، وتمتم الخليفة: «لا أريد أن أجزم دون بينة،

قلبي يحدثني أن هذا الفعل الشائن من صنع صهيوني حاقد .. لا أعرف من ، لكن الدلائل كلها تشير إلى أنه ليس من رجالنا من يجرؤ على ارتكاب تلك الحماقة .. ما قمنا لنغتال الناس ، ولكن لننشر الفضيلة ، ونزرع الحب ، ونقول كلمتنا .. ونحن لا نتعجل الأمور .. فعندما يحدث التغيير في عقول الناس وعواطفهم ، هم بأنفسهم سيتآزرون في رفع أسس البناء العظيم الطاهر ...»

وقال محمود : « العدو فاجر خبيث يا أمير المؤمنين ..»

– « أنا أعرفهم ، لكن الأمر خرج عن نطاق خبثهم .. ولسوف تسوقهم الأحداث سوقًا .. سيظهر القاتل إن عاجلًا أو آجلًا .. الشباب هنا مصابون بمرض الشهرة وحب الظهور .. القاتل نفسه لا يود أن يبقى مجهولًا .. يريد أن يصبح بطلًا تتحدث عنه الصحف ، ويتردد اسمه في الأندية والحانات .. العالم مغرم بالفضائح .. والشعارات .. وهتك الأستار ..»

وقدم أحد المحققين لأخذ أقوال الخليفة : « اسمك بالكامل .. بلدك .. عمرك .. عملك ..»

– « أنت تعرف ...»

– « لا أشياء مسبقة .. إنني أبدأ وكأني لا أعرف شيئًا ..»

قال الخليفة : « حسنًا .. عمر بن الخطاب .. بلدي القدس .. عمري لا أعرف .. وعملي ماذا أقول ؟ جمعت الأحطاب ، ورعيت الإبل والأغنام ، وقمت بالسفارة بين مكة والعالم البعيد .. وخدمت في حكم الأمة عشر سنوات .»

تلكأ المحقق ، وفكر بعض الوقت ، تناول القلم وأخذ يكتب ، وعاد يقول في ضيق : « ما هي معلوماتك عن الحادث ؟ »

– « المعلومات التي نشرتها الصحف ..»

– « ألا تعرف القاتل ؟ »

– « لا أكتم الشهادة .. الله يقول : « ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » ..

وقال المحقق : « في آخر لقاء لك مع راشيل ، ألم تبد أمامك شيئًا من المخاوف ؟ »

– « كانت شجاعة لا تهاب شيئًا .. في حياتها الأولى .. والثانية ..»

وسدد إليه المحقق نظرات ثاقبة وقال : « ألم يتوعدها أحد من رجالك ؟ »

– « رجالي لا يعرفون الغدر ، ولا يؤمنون بالاغتيال أو قتل الأبرياء ..»

– « ربما ظن البعض أنها غير بريئة ..»

قال الخليفة : « ربما ..»

صاح المحقق : « إنك لا تقول شيئًا ذا قيمة »

– « تصرفاتك كلها لا معنى لها .. أجئت تبحث عن القاتل في المستشفى حيث يرقد رجل مريض ؟ »

– « بل نبحث عن ثغرة ..»

– «لكي تفلتوا منها، وتلقوا المسئولية على أكتاف ضحية بريء ..»

– «أنت تعرِّض بسدنة القانون ..»

– «وأنا لا أؤمن بقانونكم ..»

– «تلك جريمة يعاقب عليها القانون ..»

تمدد الخليفة فوق سريره، ووضع راحتيه تحت رأسه وقال: «انتهى كلامي .. فلتبحث لك عن تسلية أخرى ..»

– «بل ستتكلم ..»

– «لن يرغمني أحد .. هذا حقي ..»

– «لسوف نعود إليك ثانية ..»

– «الله أعلم ..»

وخرج المحقق وعاد الدكتور محمود ليسأل الخليفة عما جرى، ولا يدريان كيف انفتح الباب فجأة، ووثب إلى الداخل رجل أشقر الشعر أزرق العينين .. إنه دافيد .. الجنون في عينيه، ووجهه محتقن يكاد يتفجر منه الدم، وخنجر لامع في يده .. وقف الدكتور محمود مأخوذًا مشلول الفكر والحركة. ونظر الخليفة بعينين صارمتين لا تطرفان، وقال بصوت ممتلىء وقور وواثق: «نفس الخنجر!! هيه .. لن تفعلها أيها النجس ..»

كان دافيد قد أغلق الباب وراءه، وأحكم مزلاجه، والحراس يدقونه بعنف من الخارج، وتقدم «دافيد» نحو سرير الخليفة

مكشرًا عن أنيابه المتسخة من كثرة التدخين: «لقد انتهى عصرك أيها الخليفة .. ولن يعود التاريخ إلى الوراء .. هذا عصرنا .. نحن نمتلكه .. وسنسحق أي متسلل إلى وجودنا ..»

قال الخليفة دون أن تزايله شجاعته وهدوءه: «هناك أشياء لكل العصور ..

– فلتتحول الرمال إلى صواريخ ..

– ولتنقلب الجياد إلى دبابات ومصفحات وطائرات ..

– لكن قلب الإنسان سيظل يعمر بالحب والحرية والإخاء والقيم الطاهرة .. وسيظل التوحيد راية الكرامة والتحرر من كل الأصنام والطواغيت ..

– ذلك أريج العصور .. كل العصور

– الخناجر لا تقتل روح الحق في هذه الدنيا الكبيرة ..»

انقض دافيد كنمر شرس، ورفع يده بالخنجر ليهوي به ويغيبه في قلب الخليفة، فاندفع الدكتور محمود .. لكن الخليفة كان أسبق منه .. وثب من سريره في خفة معجزة، وأمسك بمعصم دافيد بيد حديدية .. أعجزته عن الحركة ..

وهتف محمود: «اتركه لي يا أمير المؤمنين .. أنا كفيل بتأديبه ..»

وجذبه محمود إلى الخلف بعد أن أسقط الخليفة الخنجر منه، ثم سدد إلى فكه الأسفل لكمة قوية، ثم ركله بركبته اليمنى ركلة قوية في بطنه، فترنح دافيد شاحبًا مرتاعًا وسقط كالمغمى

عليه، وكان يئن أنينًا ضعيفًا، ويستغيث .. ومضى محمود إلى الباب، وفتحه والعرق الغزير يتقاطر على وجهه، وقال محمود وهو يلهث، في نبرات راجفة: «خذوا هذا الكلب إلى الشرطة .. لقد حاول قتل أمير المؤمنين ..»

نفخ الحراس في صفاراتهم، ودقت الأجراس في الحجرات وفي أجهزة التليفون، واستدعيت قوات إضافية، وهرول موظفو المستشفى إلى مكان الحادث، بينما انكب الدكتور محمود على المجرم المغمى عليه، وأخذ يفحصه ويتسمع دقات قلبه، ثم حقنه بعقار الكورامين كي يفيق ..

وتمتم الخليفة بكلمات من كتاب الله: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا .. وكفى الله المؤمنين القتال ..»

فتح «دافيد» عينيه، ونظر فإذا بالحراس يحيطون به من كل جانب، وضابط صهيوني كبير يمسك بيده، ويطلب منه أن يرافقه إلى مقر «إدارة الأمن»، وتلفت دافيد حواليه. أضواء تغشى العيون تنفثها آلات التصوير .. الخليفة جالس على سريره يرقب المشهد صامتًا .. ومحمود بمعطفه الأبيض يبدو لدافيد من الخلف .. وأخذ دافيد يدق رأسه، ويشد شعره في هستيرية وينشج ويقول: «تعاملونني كمجرم .. إنني أؤدي واجبًا مقدسًا .. لماذا لا تتركوني .. الجريمة هنا (مشيرًا إلى سرير الخليفة) .. لن تفهموني إلا بعد فوات الأوان .. مستحيل أن أفشل مرتين... العباقرة هكذا دائمًا .. إنني أقولها بملء فمي أيها

الإسرائيليون .. اسحقوا هذا الخطر قبل أن تتحول كلمات الخليفة المزعوم إلى حشود .. ورايات .. ونيران تحرقكم .. أمنكم ووجودكم .. وتبدد كفاح الأجيال الطويل .. وافعلوا بي الآن ما شئتم ..»

ووجدت الصحف مادة جديدة للحديث، ولم يكن هناك مفر من توجيه تهمة «الشروع في القتل» إلى دافيد، لكن نغمة واضحة جديدة، بدأت تظهر في الأيام التالية، تحمل عواطف الشفقة والرأفة بالنسبة لدافيد، وقال أحد المعلقين الصهيونيين: «إن مأساة دافيد تحمل معنى خطيرًا، تحمل معنى الرفض لدى أجيالنا الفتية لكل أنواع الخرافات والغيبيات التي انتهى عصرها منذ زمن بعيد اللهم إلا في بعض الدول المتأخرة كالبلاد الإسلامية والإفريقية .. وإن المتهم يجب أن ينظر إليه نظرة عاقلة، تتفهم طبيعة المشكلة، وتنظر بعطف إلى تمرد ذلك الجيل وعنفه، ضد الجيل والسخافات الدينية التي تهدد أمننا ومستقبلنا، بعد أن ضحينا بالكثير من المال والدماء والجهود المادية والمعنوية، لبلوغ قمة النصر الخالد في حزيران عام ١٩٦٧ .. دافيد بريء .. دافيد مخلص لعصره وشعبه .. دافيد رمز الرفض والتمرد .. وإن جانبه التوفيق في التعبير عن ثورة هذا الجيل وتطلعاته ..»

لكن صحيفة أخرى تصدر في «تل أبيب»، أفردت مقالة في صدر صفحتها الأولى وقالت دون توقيع: «دافيد مصاب بمرض عقلي، الملف الخاص به في الحزب وفي المدرسة وفي إدارة الجوازات؛ به مواقف وأحداث تشي بأعراض هذا المرض.. إن هناك دواعي إنسانية وطبية تحتم على سلطات الأمن أن تطلق سراحه، على الفور، أو تحيله إلى مصحة للأمراض النفسية ..»

وقامت نفس الصحيفة بعمل تحقيق صحفي شامل «ريبورتاج» عن ماضي دافيد، استضافت فيه أباه وأمه وإخوته وأخواته، وبعض أصدقائه، واستضافت أيضًا بعض الفتيات اللاتي لم يخجلن أن يصرحن بأن لهن علاقات عاطفية متنوعة مع دافيد .. وكل الأحاديث والتصريحات كانت منصبة على «المرض النفسي» الذي أصيب به وعانى منه دافيد منذ الصغر، بسبب الحروب والويلات التي تعرضت لها الحركة الصهيونية، والمخاوف التي رزحت في رحابها. والغريب أن جريدة الحزب الذي ينتمي إليه «دافيد» قد اتخذت موقفًا آخر، لقد أخذت تسرد وقائع اليهود في الجزيرة العربية أيام الرسول والخلفاء، وصورت مواقف الغدر والخيانة ونقض العهود والنفاق، صورتها على أنها بطولات وتضحيات باهرة، تعتبر صفحة مشرقة في تاريخ الديانة اليهودية، وأخذت تهاجم موقف عمر التاريخي، وسياسة المسلمين الأوائل، وتنذر الشعب بسوء

المصير، وتكرار أحداث «خيبر» وبني «قريظة» وغيرهما، إذا ما تُرك الحبل على الغارب للفتنة الجديدة التي أخذت تنفث سمومها ..

وفي مربع واضح نشرت الصحيفة نبأ اختيار كبار المحامين وأشهرهم للدفاع عن الوطني المخلص، والعقائدي البطل، دافيد حاييم، وقالت الصحيفة، أنها وضعت تحت تصرف هؤلاء المحامين كل الوثائق والوقائع الهامة، وأكدت أن القضية ليست «شروعًا في قتل» كما صورها المحققون المخدوعون، ولكنها «دفاع عن النفس»، وحماية للوطن، ولابد أن تكون المحاكمة محاكمة تاريخية بكل معنى الكلمة. حتى يفتضح الحقد الإسلامي العتيد - كما تزعم - ضد اليهودية واليهود ..



الأمر الذي لم يكن يتصوره أحد، هو أن «راشيل» قد أفاقت من غيبوبتها، وتخطت مرحلة الخطر بسلام، لكنها لم تدل بأية بيانات عن الشخص الذي اعتدى عليها .. كانت سلطات الأمن ثائرة حائرة لرفضها إزاحة الستار عن القضية، ولم يكن الناس بأقل حيرة ودهشة، لكنها أكدت براءتي وبراءة الدكتور عبد الوهاب والدكتور وهيب ورجاء .. ونفت كل الشائعات التي روّجها المغرضون حول الخليفة، فلم تجد السلطات مناصًا من

الإفراج عن جميع المتهمين ، على أمل أن تعدل «راشيل» من موقفها وتعترف بما يحدث ..

وذات مساء قال الخليفة : «إنني سجين المستشفى .. ماذا يقصد الإسرائيليون بإبقائي هنا ؟»

قال الدكتور وهيب : «ستبقى حتى يتخذوا بشأنك قرارا أخيرًا .. وليس في نيتهم خير .. هذا ظني ..»

وقال الدكتور عبد الوهاب : «أعلم أن السجن خلوة وعبادة وتأمل – لكن لابد أن تخرج للناس ..»

همست رجاء بصوت خفيض : «يجب أن نسبق تفكيرهم ، لا أمل في الصهيونيين . فلندبر خطة للهرب من هنا ، قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه ..»

ورددت أنا على الفور : «هذا هو الرأي ولا رأي غيره ..»

أما الإسرائيليون فكانوا يقولون : «إن حماية الخليفة أمانة في أعناقنا ، وإن تيار العداء العنيف ضده – سواء من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود – يلزمنا بالحفاظ على حياة الرجل ، وليس هناك أأمن ولا أنظف من مستشفى القدس .»

وفي سريرها المحاصر قالت راشيل بصوت واهن باك : «أريد أن أرى الخليفة .. أخاف أن أموت دون أن أراه ..»

وقال صحفي ماكر : «يا لها من فكرة رائعة ، أن يأتي موكب الخليفة الكبير ، تحت أضواء الكاميرات ، حوله سياج من الشرطة ، ويدلف على المستشفى الإسرائيلي ، ويلتقي بالفتاة التي آمنت به ، وأحبته .. يا له من لقاء!! إنه مجال خصب للصحافة والشعراء والروائيين والثرثرة الممتعة .»

لم تمانع السلطات في تنفيذ رغبة «راشيل» ، لكن الخليفة ابتسم في رقة وهدوء وقال: «شفاها الله .. هي شريفة القصد .. لكن الخبثاء يريدون أن يستغلوا الموقف ، ويتسلون ويعبثون .. وتقدم للناس موائد من السخريات .. الأرواح أيها الرجال جنود مجندة ، كما يقول الرسول – ﷺ – ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .. ولن تحول القيود والسدود والحراب دون لقاء الأرواح .. وراشيل لديها من الزاد ما يكفيها لخوض بحار الآلام والوحدة والعناء .. ولديها من الماء العذب ما يروي ظمأها في السفر الطويل .. انفضّوا .. وسيروا إلى مقاصدكم ..»

الفصل ٢٣

اندمجت الحكيمة «رجاء» في المعاني الكبرى التي أفاضها عليهم أمير المؤمنين، خلقت خلقًا آخر، كانت تتكلم بحساب، وتتحرك عن وعي، وأهم شيء أنها كانت تفكر.. أدركت أن الفكر روح الحياة، وما أكثر القضايا التي طرحتها كلمات أمير المؤمنين: الله.. الإنسان.. الإسلام.. العلاقات بين الإنسان والإنسان، وبين خالق الكون وإنسان الكون، الدين والعلم، وذلك العصر وما يتصارع فيه من قيم وأفكار وعواطف... لم يكن الأمر سهلًا، لأنه ليس انفعالًا عاطفيًا عابرًا، بل اتخاذ موقف.. موقف أساسي يترتب عليه... ومسئوليات.. ووجدت «رجاء» نفسها تخوض تغييرًا كبيرًا في نظرتها للأشياء.. وفي ملبسها ومأكلها.. ونومها ويقظتها.. وعلاقاتها بزميلاتها وزملائها.. وأحوالها الأسرية.. ثم الشيء الهام: وهو واجبها في نشر ما تؤمن به من أفكار ومبادىء وخاصة بين بنات جنسها.. كان لها نشاط مستمر، ودور كبير، إن الصحافة لم تتخذ منها مادة للإثارة، لكنها برغم الهدوء كان دورها أهم وأكبر من الدور الذي لعبته «راشيل» تلك التي أصبح اسمها على كل لسان..

وتغيرت علاقتها بالدكتور «وهيب»، كانت تلك العلاقة في الماضي، همسات حلوة، ونظرات والهة، وأحاديث طويلة في التليفون، وسهرات في السينما، ونزهات في شتى الأماكن الجميلة، وأحلام عن المستقبل والبيت السعيد، والأبناء الذين طال انتظارهم في عالم الغيب، وأثاث حجرة النوم والاستقبال والطعام، وشهر العسل، وآخر الموديلات في الثياب والشعر وأصباغ الزينة، وكلمات قليلة يائسة عن الحرب وإسرائيل واللاجئين، وعن الذين ماتوا، والذين ينتظرون دورهم، هكذا كانت.. وكان وهيب إذا حدثها عن كفاح المرأة في موكب الثورة البروليتارية، والتصفيات الدموية للاستغلال العفن، وبطولة الثوار في فيتنام، والثورة الثقافية في الصين، ورجال الصناعة والمال في أمريكا رائدة الاستعمار الجديد، كان إذا كلمها عن ذلك، بدا عليها شيء من الضيق والملل، وهزت رأسها دون اهتمام، وحاولت إعادته إلى حظيرة الكلمات الحلوة السهلة عن الحياة والحب والمستقبل والبيت السعيد.. أما اليوم فقد أصبحت رجاء شيئًا آخر تمامًا.. الوجه يلفه حزن غامض ووقور يلوح بالإصرار، والملابس محتشمة ضافية، والنظرات صافية واعية، والأحاديث منصبة على أمير المؤمنين وتوجيهاته، ووهيب يشاركها في سعادة، حتى لكأنهما يستذكران دروسًا يتوقف عليها مستقبلهما وحياتهما كلها.. ثم يرسمان كيف يسيران بين الناس بهذا الفكر الجديد!! ولم يطفىء ذلك كله الحب الطاهر الذى يثير الدفء في الحنايا، ويضفي على دنياهما

جمالًا رائقًا ، وتمتمت رجاء : «كلما تذكرت الماضي انتابني خجل شديد »

وابتسم وهيب قائلًا : « أنا على النقيض من ذلك تمامًا ، كان الماضي تجربة شائقة برغم ما يحفل به من انحرافات وتخبطات »

– « وكيف ؟ »

– «لولا التجربة ، وما أثارته في فكري من صراع حاد ، ومقارنات لما استطعت أن اتخذ الموقف الجديد »

قالت رجاء : « ولِمَ لَمْ تكن أيامنا منذ البداية مثل الآن ..»

شرد وهيب قائلًا : «كان عمر بن الخطاب في الجاهلية عنيفًا عنيدًا ، وقيل أنه كان من أشد أعداء الرسول – ﷺ – قبل أن يسلم ، بل إنه تصدى لبعض المسلمين الأوائل وأذاقهم العذاب والسخرية المرة ، وخرج من هذه التجربة المثيرة مدعمًا بالخبرة والحصانة والمعرفة .. أصبح مثلًا يحتذى في الإيمان والإخلاص والتفاني .. آه .. لقد ضرب أخته حتى أسال دمها عندما وجدها تقرأ سرًا آيات من كتاب الله ، ثم تناول الصحيفة غضبًا وأخذ يقرأ الآيات ليرى ما فيها .. كانت الكلمات تبعث الدهشة في فكره وتبث الأمان في قلبه . وتبعث القشعريرة في جسده .. هزته من الأعماق .. استرخت عضلاته .. فانفرجت أسارير وجهه .. ما هذا بقول بشر .. امتلأت عيناه بالدموع .. ما هذا بقول بشر .. وطأطأ رأسه آسفًا .. وأسرع إلى الرسول –

ﷺ – .. وآمن .. وهو الذي كان يسل سيفه ليقتل محمدًا ، ويطمس النور الإلهي .. باسم النظام ، واتقاء للفتنة .. لكن عمر تغير .. في لحظة خالدة .. وجد أن النظام هو سنة الله .. وأن الفتنة أن يُعبد غير الله .. إن التجربة العنيفة تخلق إنسانًا جديدًا ، حيث لا تنتكس به مطامع ، أو تهوي به ردّة ..»

كانت رجاء تستمع إليه في اهتمام ، وكان لحديثه رنة صدق ، ومع ذلك فقد ظلت تحلم بالصورة المثالية .. صورة القلب الصافي المفتوح لنور الحق ، والذي يتقبل الإيمان دون لجاجة أو حمق .. وألمحت إلى هذا المعنى مع وهيب الذي قال : «ذلك هو النبي .. تنسكب الحقيقة الإلهية في قلبه دون تردد ، فتورق في روحه الفضائل ، ويشع من كلماته النور في كل اتجاه .. إنه اختيار إلهي بحت .. سبحانه .. يصطفي من يشاء ..»

وأخذا يستعيدان ما يجري في هذه الأيام من أحداث ، وخاصة حادث راشيل ، ومحاولة دافيد لقتل الخليفة ، وموقف الدكتور محمود العناني الذي كان الحادث بالنسبة له الشرارة التي أشعلت وجدانه وعقله ، فآمن .. وابتسمت رجاء : « أليس عجيبًا أن تكون يا وهيب أسبق من محمود في انصياعك للحق ؟ » ، وكرر وهيب ما هو معروف عن محمود في حبه للتأني الزائد ، ومراجعة كل شيء أكثر من مرة حتى الحالات المرضية الواضحة ، لا يقر بتشخيصها إلا بعد فحوص عدة ، مما كان يزعج فنيي ماكينة الأشعة ، والعاملين في مختبرات الدم

والإفرازات وحملة المجاهر .. كان صبورًا دقيقًا ، لدرجة تثير ، مما أضاع منه أكثر من زيجه ، وفوت عليه أكثر من فرصة ، لكنه لم يندم أبدًا .. حتى إبان الحرب كان في إمكانه أن يهرب قبل احتلال المدينة ، لكنه كان مشغولاً بالبحث في حالة مرضية خاصة يريد أن يصل فيها إلى قرار ، ولما اكتظت المستشفى بالجرحى ، انهمك في العمل ، ولم يفق إلا على القوات الصهيونية تحاصر المستشفى ، وتدخل إليه ..

وصمتت رجاء برهة ، ثم قالت : «كان أبي رحمه الله ينصحنا دائمًا بألا نترك أرضنا . مهما كانت الظروف .. هذه أرضنا وعليها نحيا ، وعليها نموت .. ولكن أبي ينسى أبدًا تلك الرحلة المرهقة الحزينة في عام ١٩٤٨ وهو يحمل الزاد على كتفه ، وطفلاً على كتفه الآخر .. ويمضي مخترقًا حقول الموت والرعب والقيظ .. تاركًا وراءه يافا .. وكان يقول لو بقي شبر واحد من أرضنا لبقيت فيه .. من يدري .. البذرة الصغيرة قد تنشق عنها الأرض ، وتخرج شجرة ضخمة .. تسمو أغصانها إلى عنان السماء هكذا كان يقول .. المأساة كانت تلف حياتي .. لم أكن في الحقيقة - وأنا المسلمة - أفكر جديًا في الإسلام .. كنت أعرف أمورًا سطحية تافهة عن النار والجنة وسيرة المحاربين العظماء .. كان تاريخ الرسول - ﷺ - يشبه في مخيلتي قصيدة جميلة ، ذات إيقاع موسيقي يستولي على الألباب ، لكنني لم أكن أفهم معنى تلك القصيدة ، ولا أتعمق

أبعادها .. لم أتعلم في المدرسة عن ذلك شيئًا ذا قيمة .. ولم يتيسر لي كتاب أفهمه فهمًا جيدًا .. لكن كلمات الخليفة جاءت بسيطة مذهلة ، تفيض بالروعة والتأثير .. وضعت يدي على مواطن الحق والخير ومنبع الجمال الخالد .. لم أستطع أبدًا من قبل أن أفهم الإسلام على أيدي المحترفين .. أو لعلي في أغلب الأحيان لم أكن لأحاول ذلك ..»

وأخذ وهيب يفكر بصوت مسموع : «كثرة المعلومات أو قلتها ليست العامل الحاسم ، كان أبو سفيان في جاهليته ملمًا بكثير من الحكمة والعلم في عصره ، وكان بلال بسيطًا .. عبدًا مسكينًا يعمل بيديه ، لا يكاد يجد وقتًا للراحة .. وآمن بلال ، وكفر أبو سفيان .. آه .. عندما آمنت «بدكتاتورية» الطبقة ، ووحدة الطبقة العاملة في العالم ، كنت أقول مع القائلين : «نحن لا نعادي الطبقة العاملة في الدولة الصهيونية ، فهم ضحايا مظلومون أمثالنا ، وهم جزء من الكل .. من عمال العالم الكادحين .. وضحك أبي العجوز وقال لي آنذاك : أيها المخدوع .. إن الطبقة العاملة في دولة صهيون هي التي تحمل السلاح ، وتحتل الجولان وسينا ، وهي التي أقامت إسرائيل منذ البداية ، وزرعت في أرضنا التشرد والعذاب والذل .. الكفر ملة واحدة ، هناك عمال مؤمنون وعمال مارقون .. أما تقسيماتك يا ولدي فهي مستعارة .. وهي أبعد ما تكون عن الحق .. والفضيلة يا وهيب لا تنبع من طبقة ، والحق لا يكون في جانب

طبقة بعينها .. إنها صفات فردية .. قد تعمر قلب عامل أو ملك أو جندي .. وقد تترعرع تحت سقف كوخ حقير ، أو تزدهر في جنبات قصر منيف .. العدل لا يطلعه فقر أو غنى ، ولا عبد أو سيد ، العدل ينبع من قلب المؤمن .. هكذا كان يقول أبي .. وكنت أسخر منه بيني وبين نفسي ، وأرميه بالجمود والرجعية .. آه .. لكي يوجد المجتمع السعيد .. يجب أن يوجد الفرد الصالح .. والحاكم العادل .. وليس لطبقة بعينها ، أو فرد بذاته قداسة من أي نوع .. القداسة للمبدأ .. للأصول الشريفة التي يجب أن يسير عليها الناس ..»

ثم تنهد وهيب في ارتياح : « آمنت بالله ..»

وبقي حادث راشيل لغزًا ، لم يستطع أحد أن يفض مغاليقه إلا الجاني والمجني عليها ، لكن « دافيد » لا يتكلم ، و« راشيل » تأبى أن تدلي بالحقيقة ، وأخذ رجال الخليفة يقومون بالتحريات اللازمة ، لكي يفهموا أبعاد الحادث ، منه ، وانطلقوا في كل اتجاه يحاولون جمع الأخبار والهمسات والتخمينات ، و« إيلي » هو الآخر كاد يجن ، فهو – برغم حنقه على تصرفات راشيل ، واحتقاره لأفكارها – كان يشتعل غيظًا ، كان يريد أن يعرف الجاني لينتقم منه ، وآمن « إيلي » في النهاية ، بأن الفاعل لابد وأن يكون من أنصار الخليفة ، بل إن الخليفة نفسه ربما

يكون هو المدبر للحادث ، للتخلص من الفتاة التي تحوم حولها الشبهات ، والتي يظن المسلمون أنها دسيسة إسرائيلية مكشوفة لا تحتاج إلى كبير ذكاء ، ثم إن راشيل وما كتب عنها في الصحف ، وخاصة علاقتها العاطفية ، والأكاذيب التي دستها سلطات الأمن ، كل هذا – حسبما يعتقد إيلي – قد أغضب الخليفة على راشيل ، وإن تظاهر بالرضى عنها ، ومما يؤكد هذا الظن لدى إيلي ، أن راشيل ما زالت معتصمة بالصمت ، ويعتقد إيلي أن السبب في ذلك هو أنها لا تريد أن تشي برفاقها من أتباع الخليفة ؛ لأن في ذلك خيبة أمل كبرى لها ، وانهيار لمخططاتها ، وستلحق بها سخرية الناس .. إن راشيل تعتبر الأمر مسألة كرامة وكبرياء ، ثم إنها بعد لم تزل تحب الرجل الغامض ، وتذوب شوقًا إليه ..»

غير أن الدكتور محمود العناني كان له رأي آخر غريب غاية الغرابة ، إنه يذكر أن « دافيد » أثناء محاولته الاعتداء على الخليفة كان يردد في هوس : «مستحيل أن أفشل مرتين »

والدكتور محمود لم يتذكر هذه الجملة إلا بعد مرور فترة من الوقت وأخذ يحاول أن يفهم مرماها دون جدوى وظن في البداية أن دافيد ربما فكر في اغتيال الخليفة مرة قبل ذلك وفشل .. وفجأة برقت في ذهنه فكرة غريبة : « لماذا لا يكون « دافيد » هو الفاعل في حادث « راشيل » أيضًا ؟ »

لكن الأمل أخذ يخبو، عندما تذكر عدم اعتراف «راشيل» دون سبب وجيه، لو كان الفاعل في حادث راشيل هو «دافيد» المتعصب الحاقد، فلماذا تتستر عليه!؟

وقرر «محمود» أن يتوجه إلى المستشفى الإسرائيلي بالقدس الجديدة برغم الحراسة المشددة، عن طريق أحد أصدقائه القدامى، لم يكن الأمر سهلًا، فقد بذل فيه جهدًا خارقًا، واستطاع أن يصل إليها .. وحينما انفرد بها، متظاهرًا بفحصها لإبداء رأيه، قال هامسًا: «لست أدري لماذا تتسترين عليه؟»

قالت بهدوء وبصوت هامس أيضًا: «من؟»

سدد إليها نظرات ثاتبة لا ترتجف وقال: «دافيد»

شحب وجهها، ودق قلبها في عنف، وابتلت أهدابها بالدموع، وهمت بالجلوس فلم تستطع، وهتفت بصوت واهن: «كيف عرفت؟»

– «هذا لا يهم .. إن تسترك عليه أمر محير .. ألأنه صديق إيلي؟»

قالت وقد تمالكت أعصابها: «وهل الجميع يعرفون؟ والخليفة؟»

– «يجب أن توضحي الأمر وإلا وقعنا في بلبلة أشد .. تكلمي .. الوقت لا يسمح لنا بالثرثرة»

أمسكت بمعطفه الأبيض متشبثة وقال: «لقد خفت على الخليفة أن يصبه مكروه»

– «كيف؟»

– «إذا أدين دافيد، فسيثور حزبه ثورة لا يعلم إلا الله مداها، وقد يتصدى له «إيلي» وينتقم منه، وستثور فتنة في المجتمع الإسرائيلي العفن .. قد تجر إلى كوارث .. ولن يدفع ثمنها سوى الخليفة .. أنا أعرفهم وابتلعت ريقها، واستراحت لحظات، ثم عادت تقول: «عدني ألا تكشف النقاب عن الأمر .. من أجل الخليفة .. بل من أجلنا جميعًا ..»

– «لكن ترك دافيد سيؤدي إلى نكبات أخرى .. لقد كاد يفتك بالخليفة كما تعلمين ..»

– «لقد نجا الخليفة والحمد لله .. انتظر .. ليس هذا أوان الكشف عن كل ما جرى ..»

وطأطأ محمود رأسه في حيرة وانصرف ..

لكنه كان يشعر بسعادة قصوى ..

وبعد يومين أفرج عن «دافيد» بالضمان المالي ..



الفصل ٢٤

وقرر الجميع من أتباع الخليفة أن يدبروا خطة لتهريبه، عبر الحدود إلى أقرب دولة عربية، فهناك – حسبما يظنون – سيجد الأمن والحرية، والمناخ الصالح لعمله، وسينجو من الخبث الصهيوني، ويفلت من إسار السجن الذي يحصرونه فيه، واعترض الخليفة في البداية وقال: «يا أبنائي.. لا يهم شخصي.. أن أسجن أو أموت هذا شيء يحدث كثيرًا لحملة المبادىء، المهم أن تنطلق الكلمات.. أن تعيش في فكر الناس ووجدانهم.. وأن يحملوها للآخرين.. فلم يستطع طاغية على حقب التاريخ أن يسجن الكلمات، لأنها كالأرواح.. تجوب الآفاق.. لا تنزف أو تُعذب أو تدفن في التراب.. حياتها أبدية.. تظل تدور وتدور.. ليس المهم هو عمر.. المهم هو الكلمات التي حملها عمر، وأنتم تعرفونها.. هاجر محمد ونحن معه إلى «يثرب».. لكن كلماته كانت تتردد في أرجاء مكة، وتقتحم الأبواب والنوافذ، وينطلق صداه في الوديان.. وعلى قمم الجبال.. وتلاحق الناس في يقظتهم ومنامهم.. يتهامسون بها أحيانًا، أو يصبحون بها في قوة.. لأنها كلمات صادقة قوية.. لا زيف فيها ولا رياء.. ولأنها كلمات الله العظيم.. حسنًا.. فلنسافر إلى أرض أخرى ولندع الكلمات هنا تفعل فعلها..

الكلمات كالكائن الحي قد تنمو وتفرخ وتزحم الطريق.. عيشوا أنتم بين ظهرانيهم.. لكن حذار.. أنا لا أعني الكلمات المجردة.. الكلمات وحدها لا تجدي كثيرًا.. يجب أن يحملها فكر طاهر، وقلب مؤمن لا يرهب إلا الله، يجب أن تترجم إلى سلوك.. إلى حياة مميزة.. هذا أفعل وأقوى.. أعرف أن عصركم عصر القوة.. لكن ثقوا يا أبنائي أن قلب المؤمن، وفكره الحر الشجاع، وروحه الطاهرة.. ستمدكم بقوة لا مثيل لها.. القوة ليست الحديد والنار وحدهما.. إنهما مظهران ماديان. هناك القوة الروحية.. ستحتاجون الحديد والنار – لا شك – كما فعل نبيكم صلوات الله عليه.. القوة المادية وحدها هراء.. وإلى زوال.. وقد يملكها الكثيرون.. لست حالمًا ولا واهمًا.. ولا أستلهم كلمات من شطحات الخيال والهذيان.. بل في يدي الدليل.. هكذا انتصر نبيكم.. أذكروا «بدر» و«أحد» و«الخندق» و«حنين».. كان لكل معركة منها سمة خاصة بها.. وانتصرنا.. لا تقولوا كما يقولون المغرورون: هذا عصر مضى.. ذاك قول باطل.. حيث توجد المبادىء متمثلة في رجال مؤمنين لا يخافون إلا الله وحده.. يوجد النصر، وتشرق شمس العدل والكرامة.. ويسعد الناس.. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.. آه.. مات حبيبي رسول الله والمسلمون يعدون بالألوف.. انظروا اليوم إلى أنحاء الدنيا.. الملايين تعبد الله على أنوار دعوته.. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ

بينما كنا ندبر الهرب، بلغنا أن «دافيد» اللعين، بعد أن أفرج عنه، أخذ يجمع حوله، بعض شباب الحزب المتعصبين، ويدبر المؤامرات للقضاء على «جماعة أنصار عمر»، وعلى كل من يدعو لمبادئه، والحق، أن هذا الأمر، قد سبب لنا إزعاجًا شديدًا، فنحن لم نكمل استعدادنا بعد، وليس من صالحنا التصدي له على الفور، والسكوت هو الآخر معناه الاستسلام والإضرار بنا، ولم يكن هناك من وسيلة سوى الاتصال «براشيل»، وإقناعها بأن تعلن ما خفي، وتشرح حادث عدوان «دافيد» الفاجر عليها .. لعلهم يقبضون عليه، ويعرقلون مخططه ولو إلى حين .. لكن راشيل أصرت على موقفها السابق، إذ كانت مقتنعة اقتناعًا قويًا، بأن اعترافها سيجر إلى مشاكل تهددنا وتهدد الخليفة، وكنا نود أن نخبرها بأنه لا خوف على الخليفة لأنه سيغادر القدس قريبًا، غير أن بعض الإخوة أصر على أن يظل «الهرب» سرًا مطويًا لا يطلع عليه أحد .. حتى راشيل لا داعي لإخبارها به، برغم الثقة فيها ..

ودهمتنا الأحداث بطريقة مؤلمة قاسية ..

لقد وضع «مجهول» المتفجرات في منزل الدكتور عبد الوهاب السعداوي .. وانفجرت العبوة الناسفة قبيل الفجر

ذات ليلة سوداء، غاب قمرها .. ودمرت المنزل الصغير الذي يعيش فيه عبد الوهاب وأمه وأخوه الصغير ..

ومات الثلاثة ..

مات عبد الوهاب الحبيب ..

كان جثمانه يرقد مسجى في نفس المستشفى العربي، تغطيه الأقمشة البيضاء ذات البقع الحمراء .. خمد الجسد الطاهر .. مات .. وكل شيء في المدينة الحزينة يمضي في طريقه .. السيارات .. المصفحات .. نقط الحراسة .. الباعة .. الصحف .. أغاني المذياع .. الطائرات التي تهدر في الأفق السجين ..

أصابنا الذهول .. كنا نتحرك في المستشفى وفي الشوارع كأشباح هائمة .. ولما مات عبد الوهاب دمعت عينا الخليفة .. وانسكبت الدموع على لحيته البيضاء .. وأخذ يقول بصوت يخالطه البكاء : «إن العين لتدمع .. وإن القلب ليحزن .. وإن لفراقه لمحزونون .. على مثله تبكي البواكي ..»

وصرح الدكتور محمود محتقن العينين : «بدأ عهد التضحيات .. مرحبًا بالموت ..»

رد عليه وهيب محتدًا : «بل عهد الثأر .. ولكم في القصاص حياة ..»

وقالت رجاء والدموع تغرق عينيها : «دعوني أذهب للقاتل وأحرقه وأحرق بيته ..»

وقال الخليفة في هدوء عجيب بعد أن جفف دموعه : «طوبي للغرباء .. طوبي للشهداء .. كل يوم يسقط في أرضكم شهداء يا أبناء الأرض الشهيدة .. لم يسقط عبد الوهاب وحده .. من مات دون عرضة فهو شهيد . ومن مات في معركة الجهاد الأسمى شهيد .. ومن مات دفاعًا عن نفسه وماله فهو شهيد .. والقصاص يكون من أجل أولئك الملايين المعذبين المضرجين في دمائهم وتعاستهم وذلهم .. هم إخوة عبد الوهاب ..»

ومر الحادث دون أن تشير إليه الصحف بكلمة واحدة ، وقيد الحادث ضد «مجهول» وتهامس رجال الأمن الصهيونيون قائلين : «إن الحادث لابد وأن يكون من صنع إحدى الجبهات الفدائية اليسارية .. إذ المعروف أن عبد الوهاب كان يميني النزعة .. بهذا تشهد التقارير التي لدينا عن حياته وآرائه السياسية وتدينه .. أو لعل الجبهات الفدائية اليمينية قد خالجتها الشكوك في سلوك عبد الوهاب ، وظنوه ضائعًا مع راشيل ، في عمالة إسرائيلية خفية ..» كانوا يضحكون وهم يكتوب هذه التفسيرات الغريبة .. مما يبعث على الشك ، من يدري فقد يكون لهم يد في الحادث ، أو ربما كانوا يعرفونه ، ويتظاهرون بالغباء حتى يضرب أنصار الخليفة في الصميم ..

لكننا فوجئنا بعناوين بارزة في الصحف تقول :

«القبض على «دافيد حاييم بنحاس» مرة أخرى»

«راشيل تروي قصة غريبة» ودافيد ينكر الواقعة .. ويتهمها بالجنون ..»

الحق يقال ، أن الخبر أثار ضجة كبرى ، فقد أصيب «إيلي» بالهياج ، وحاول إطلاق الرصاص على صديقه «دافيد» وهو بين يدي الشرطة ، لكنه لم يستطع أن يحقق هدفه ، وثارت أسرة «راشيل» واتهمت الحزب الديني الذي ينتمي إليه دافيد بتدبير مؤامرة القضاء على حياة راشيل ومستقبلها بعد أن أصبحت أشهر من بنت ديان وبنت «بن جوريون» .. وحمى الجدل بين مجتمع القدس القديمة والجديدة ..

وبات ضروريًا أن نتصرف بسرعة .

كانت الخطة التي رسمها المرحوم عبد الوهاب السعداوي تتركز في وضع بعض العقاقير المنومة الشديدة المفعول في شراب يتناوله الحراس الصهيونيون ، أما الخطوة التالية فهي وضع الخيفة في سيارة إسعاف تحمل الشارة الإسرائيلية ، وكان بالمستشفى واحدة من هذا النوع ، ولابد أن يقود السيارة أحد الصحاب المخلصين على أن يكون مجيدًا للغة العبرية ، ويرتدي سترة إسرائيلية ، ولابد من أن تسلك السيارة طرقًا جانبية غير مطروقة كثيرًا ، ولا يستعمل السلاح إلا في حالة الضرورة القصوى وبحذر بالغ .. ولابد أن تتخذ الاحتياطات بحيث يمكن نقل الخليفة إلى سيارة أخرى عند الضرورة ..

والحقيقة أن الفدائيين من «فتح» قد قدموا لنا مساعدات كبيرة في هذا المجال ..

وتمت الخطة بنجاح لم نكن نتوقعه، ولم يصادفني موقف حرج يضطرنا لاستعمال السلاح، وحينما بلغنا منطقة آمنة تكتنفها التلال والوديان تركنا السيارة تحت شجيرات برية حجبتها .. وانطلقنا عبر الشعاب. والفجر لم يكن قد أرسل تباشيره بعد .. وبعد مسيرة طويلة جلسنا في مكان آمن لنستريح ونتناول لقيمات قليلة، وجرعات من الماء ..

كان الخليفة يقول: «يا أبنائي .. لن يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .. لا تظنوا أنكم قد خلفتم المتاعب وراءكم في أرضكم المحتلة التي يعربد فيها أبناء صهيون .. لا .. لا .. المتاعب في كل أرض ..

– العالم كله يرزح تحت كابوس رهيب من القلق والتمزق والحيرة .. حتى المنتصرون»

كالعيش في البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمولُ

وكان اليهود يريدون القضاء علينا بأسلوب خبيث .. كالجائع النهم الذي يأكل في تلذذ وبطء ليبلغ أقصى درجات الإمتاع .. كانوا يزوقون خبثهم .. لكن من أدراكم .. قد تعانون نوعًا آخر من العناء والشقاء في الأرض الجديدة .. يا أبنائي .. ليست هذه آخر الكلمات كما أنها ليست أولها .. من قديم وهي تتردد في

أرجاء الدنيا .. آه .. كتبت إلى والينا «أبو موسى الأشعري» ذات يوم أقول له: «... إن الحق قديم، ومراجعة الحق، خير من التمادي في الباطل، ثم إياك والقلق والضجر والتأذي بالناس ..»

أجل يا أبنائي .. الحق قديم .. والعناء قديم .. لأن العناء خدين الحق، وما انتصرت الفضائل بغير العناء ..

ليس هذا نهاية المطاف .. فالطريق طويل .. طول الدنيا .. من قديم بدأ .. والقافلة تواصل السفر .. برغم الجوع والألم والظمأ .. والتضحيات .. ما قدره الله يكون .. كل شيء بقضاء وقدر .. ألا أن قدر الله هو نظامه وهو عدل ..»

وأخذتنا سنة من النوم .. لم نستطع أن نغالب النعاس .. وبعد فترة لا أدري أطالت أم قصرت تيقظت .. وأخذت أتلفت يمنة ويسرة .. وصرخت في رعب: «الخليفة!! أين الخليفة ؟!»

وأفاق الإخوة من نومهم مذعورين دهشين .. الدكتور محمود والدكتور وهيب ورجاء والسائق وغيرهم من الرجال .. وأخذنا نجري هنا وهناك.

نصعد القمم .. وننحدر على السفوح .. ونجوب الوديان .. وننادي وننادي وننادي بأصوات لهفى يخالطها البكاء:

«يا أمير المؤمنين ... يا خليفة رسول الله يا عمر بن الخطاب ... أين أنت ؟! ..»

ولم يعد إلينا سوى الصدى الحزين ، ممتزجًا بخفقات الأنين .. وطلع الفجر ساكنًا كئيبًا على قافلتنا الضائعة المتعبة .. وحلقت فوقنا طائرات « هليكوبتر » إسرائيلية كسرب من الغربان السوداء ..

كنا نرمقها في غير اكتراث ..

ثم هبطت إلى جوارنا ، وحاصرنا الصهيونيون بسلاحهم .. ثم ساقونا إلى السجن ..

كنا نسير وكأننا في حلم لا نكاد نصدق ما يجري ..

وكتبت الصحف الصهيونية في لهجة تنم عن الغيظ والحقد :

« هروب الجاسوس العربي الغامض »

« راشيل تصاب بنكسة وانهيار عصبي عقب سماعها النبأ »

« العرب يقومون بمظاهرات في المدينة القديمة ..»

« التحقيق يجري مع مدبري الحادث ..»

« أخبار غير مؤكدة تقول إن « الخليفة المزعوم » شوهد داخل أحد المعسكرات الفدائية في الضفة الشرقية ..»

وعدنا نحن إلى السجن من جديد .. لنقاسي ألوانًا بشعة من التعذيب .. من أجل أن نرشد عن المكان الذي قصده أمير المؤمنين ...

قلت للمحققين : « إنه في كل مكان .. إنه ليس مجرد جسد .. هو فكر وعقيدة .. إنه إيمان .. مستحيل أن تقبضوا عليه .. إن أردتم فاقبضوا على كل رجل ذي قلب مؤمن .. هم .. هو .. وهو هم .. أقسم لا أعرف مكانًا بعينه قد ذهب إليه .. لو علمت أن « شخصه » في أي مكان على ظهر الأرض لطرت إليه .. إنه باعث روحي وحياتي .. وملهم فكري .. كلماته وجودي .. لكني واثق أنه سيعود للظهور ..»

هتف المحققون في لهفة : « متى ؟ »

قلت : « هكذا أخبرني سرًا .. كان يحبني .. متى يأتي ؟ أين ؟ لا أدري .. ليتني أعرف .. لكنني سأعيش على أمل اللقاء به .. وسأجده .. إنه لا يكذب .. إنه شعاع من نور النبوة .. أتقتلون الشعاع ؟ مستحيل .. وعندما يعود ثانية فلن أنام .. سأظل يقظًا أحرسه بروحي وعيني ودمي .. وأتشبث بأطراف ثيابه الطاهرة .. وأمضي خلفه في أي درب يسير .. يا شعب الغيلان والأبالسة .. ألم أقل لكم إنه وجودي ؟ ما أكثر الذين يموتون .. لكنهم أحياء ..»



الخاتمة RAJOL

قال ضابط الأمن الكبير لرفاقه: «راشيل جرثومة فساد في مجتمعنا الإسرائيلي، وستسبب لنا كثيرًا من المتاعب.. لا خلاص منها إلا بالموت.. أجل.. الموت!! لماذا تنظرون إليّ هكذا؟ هذا هو رأي المؤسسة العسكرية الحاكمة.. ليس لدينا وقت للفتن والخرافات.. هؤلاء اليهود الشرقيون حقراء.. استمعوا إليّ جيدًا لن يثير الأمر أدنى دهشة أو ريبة.. فهي مصابة بجروح خطيرة.. لقد انتكست حالتها وماتت.. هذا ما سنشيعه، وسيصدقنا الجميع.. ولقد اتخذنا التدابير اللازمة لذلك.. انتهى الاجتماع..»

وفي مساء اليوم الذي دفنت فيه «راشيل»، وجد «إيلي» منتحرًا في حجرة نومه، كما صدر أمر بالإفراج عن «دافيد» لعدم وجود شهود عيان للحادث، ولأن «راشيل» كانت في حالة صحية لا تسمح بالثقة في أقوالها كما أثبت تقرير الأطباء المختصين..

أما أنا ورجاء ووهيب ومحمود العناني، فقد حكم علينا في إحدى المحاكم العسكرية، بالسجن خمس سنوات، لاشتراكنا – كما يزعمون – في شبكة جاسوسية خطرة، يتزعمها شيخ فدائي يغلب على الظن أنه من الزعماء الروحيين.

ومن الغريب أن تصدر عشرات الكتب والقصائد والمسرحيات عن راشيل، وجميع الكتاب يؤكدون أنها كانت فتاة إسرائيل المخلصة المضحية، التي حمت شعبها من أخطار خارجية مؤكدة، لم يئن الأوان بعد لإزاحة الستار عن الخفايا المتعلقة بهذه القضية، كما أطلق اسمها على إحدى المستعمرات المزمع إنشاؤها في هضبة «الجولان»!!

وأخذ أبوها وأمها والمتصلون بهما ينسجون من محض الخيال حكايات كثيرة ينسبونها إلى راشيل كذبًا، ويقبضون الثمن والدموع «الفضية»، تتأرجح في عيونهم.. هذا بالإضافة إلى المكافأة التي صرفتها الحكومة لأسرتها..

وفي ذلك السجن الرهيب، كنت أحمل معولي في تراخ وأقول: «يا وهيب.. إن خمس سنوات هنا أمر بشع..»

شرد وهيب إلى بعيد وقال: «لكن الخليفة قال: إن الكلمات لا يسجنها أحد.. إنها تهوّم الآن في كل مكان.. توقظ النيام.. وتشعل الثورة في قلوب المظلومين.. وتزعج حملة السياط والبنادق.. وما النصر إلا من عند الله..»

وتناهي إلى أسماعهما صوت صياد سمك عربي أسروه ذات مساء، وألقوا به في السجن، كان يغني موالًا شعبيًا، يردده في انفعال وحنين:

حـب الحسـن والحسـين
فـي مهـجـتـي سـاكـن
وحـب طـه الـنـبـي
جـوّا الحشـا سـاكـن
ياما نـفـسـي أزورك يا نـبـي
واقـعـد حـداك سـاكـن
واشـوف حـمـام الحمـى
حـول المقـام سـاكـن

يا ليلى .. يا عينى ..

وتمتم الدكتور محمود العناني : «آه .. يولد الفجر من بين براثن الظلام .. وبقلب المؤمن أفراح أبدية .. برغم العذاب .. يا روعة السفر»

نجيب الكيلاني

تمت في إمارة دبي – الخليج العربي
في
أول ربيع الآخر ١٣٩٠هـ
٥ يونيو ١٩٧٠م

الفهرس



RAJOL